

الأسياخ والأشجار

دراسة موضوعية

د. إخصاص محمدي عمار

كلية الآلسن — جامعة عين شمس

مكتبة الآداب

٤٢ ميلاد الأديب — القاهرة

ت: ٣٩٠٠٨٦٨ — ٣٩١٩٣٧٧

إهداء

إلى والدي يرحمه الله

فكثيرا ما عارض اتجاهي لدراسة الأدب ، وتمنّيت لو تخصصت
في أحد علوم الدين .

وعزمت أن أرضيه ما أمكنني ، حين أحاول الإفادة من دراسة
الأدب لحماية اللغة ، والدود عن الدين ، وهذه إحدى محاولاتي ، مُقرّبي
لله ، وإرضاء لأبي .

د . إخلاص شُفري عمارة

مقدمة

حين هممت بتناول موضوع الإسلام والشعر ، كنت أعلم أن عشرات من الباحثين ومؤرخي الأدب قد سبقوني إلى تناوله ، واطلعت على وجهات نظرهم في أغلب المؤلفات ، وأفدت منها ، ومع ذلك قويت رغبتي في معاودة النظر لهذه القضية وكلّي ثقة في أن أقدم جديدا ، وأحسبني فعلت .

لقد جمعت كل الآيات التي تحدثت عن الشعر والشعراء في القرآن الكريم ، وفسرتها واستخلصت ما عالجته من نقاط ، مستعينة بآراء السابقين وشروحهم .

ثم عرضت أغلب ما أثار عن الرسول - ﷺ - من قول أو فعل يتصل بالقضية وقسمته إلى أنواع واجتهدت في فهم الموقف الحقيقي من خلال المتعارض والمتفق من الأحاديث والمواقف النبوية .

وأكملت بذكر أمثلة من الأقوال والأفعال المروية عن صحابة رسول الله - عليه السلام - وخلفائه الراشدين - رضوان الله عليهم جميعا . وبعد ذلك استعرضت آراء المؤيدين والمعارضين في مناقشة تفصيلية منسقة .

وخلال المناقشة أسبغت في مواضع لم يوفها الآخرون حقها ، ورددت على شبهات لم يتوقفوا أمامها ، وصححت مفاهيم وأنكارا غابت عنهم ، أو تجاوزوها .

ذلك هو الجانب النظري في القضية ، لسكنى أضمت لها جانباً تطبيقياً .
كى أبرهن على ما توصات إليه من نتائج . لقد انتهت في المجال النظري .
إلى أن للإسلام أثر إيجابي محمود على الشعر العربى ، وأنه ازدهر وتطور
فى ظل الإسلام فأسفقت مجالاته وتمددت أغراضه ، كما ارتقت أساليبه ،
حين تغيرت - بفضل القرآن والحديث - مقاييس البلاغة ، وشروط
البيان والفصاحة .

وإثباتاً لما ذهب إليه قدمت عدداً من النماذج الشعرية فى عهد
النبوة والراشدين ، وعرضتها على مقاييس النقد والدراسة الفنية ، كى
أكشف ما طرأ على الشعر الإسلامى من تطور وتجدد وحيوية .
إنى لأرجو أن أكون قد حققت بعض ما تطلعت إليه ، حين عاودت
الكتابة فى موضوع سبقنى إليه الكثيرون .
والله الهادى سواء السبيل .

د . إخلاص نحرى عمارة

روكى ت : ٢٠٦٢٢١٥

تهم باطلة

دأب المغرضون من أعداء الإسلام والعروبة (١) على النيل منهما بشق السبل وكافة الوسائل ، فإن أعيانهم العداء السافر والحرب الضروس ، لجأوا إلى مقاتل خفية وإلى طرق ملتوية ، فهذا إغراء بما عندهم من بضاعة مادية وممنوية حتى ينجذب إليها المسلمون والعرب ويعرضون عما لديهم ، ثم يشكرون ويتجاهلون ، ومن ثم ينسونه فينثربون ، ويتشكثون ويضيعون بدداً .

(١) المغرضون يتمثلون في : المشركين والمنافقين ، ثم الشغوبيين ، طلائعهم والمستشرقين ، ثم من صار في ركبهم عن جهل أو عن سذاجة من العرب والمسلمين الذين استغربوا لأنهم تلقوا عنهم وثقافتهم في الغرب ففتشوا روحه وفكره ، فضاعت عروبتهم ووهن إسلامهم .

وأنا لا أفصل بين العروبة والإسلام ، فكل مسلم عربي ، لأنه كي يحسن إسلامه لا بد أن يعرف العربية - لغة القرآن والحديث - فإذا عرفها تعرب لسانه وفكره ، وبالتالي تعرب وجدانه وهواه فصار عربياً وإن لم ينتسب للأصول العربية من جهة الجنس .

أما من يخشون الجمع بين العروبة والإسلام ، لوجود عرب غير مسلمين ، فليطمئنوا لأننا نرحب بغير المسلمين بيننا ما داموا عرباً بالفكر والقلب ، وكل ما قصده هو أن دائرة العروبة أوسع من دائرة الإسلام ، فكل مسلم عربي وإن لم يكن بالضرورة كل عربي مسلم .

وهذا انتقاص مما عند المسلمين والعرب من بضاعة معنوية ومادية.
وازرأ بها وتحقير لها ، حتى يمازها أصعابها ويتخللوا عنها ، فيفتقدوا
هويتهم وأصالتهم .

وقد تكون الوسيلة هي إثبات العرب والمسلمين من حيث لا يشعرون
وطعنهم في ظهورهم وهم لا يشعرون ، وذلك ما تمثّل في إبداء الآراء
وعرض وجهات النظر حول أدبهم وحضارتهم وتراثهم ، فإذا كان الشعر
مفخرة العرب ونفهم الأول ومجال نبوغهم ، فإن هناك شكوكا حول نشأته
البعيدة ، وتأثره بأشعار الأمم الأخرى ، ثم هناك ريب ، بل تأكيدات
حول انتكاسته وضعفه بعد ظهور الإسلام لأنه عاداه وحقّره وهاجم
مبدعيه .

وإذا كانت الثقافة العربية الإسلامية قد بلغت ذروة لم تبلغها ثقافة
أخرى في العصر الإسلامي أيام بني أمية والعباسيين ، فقد انهارت وتراجعت
في العصر التالي أيام الدويلات والمماليك ، ثم انطمست تماما وخذ كل بصيص
لها في ظل الخلافة التركية ، وإذا كانت الحضارة العربية الإسلامية قد
تميّزت بسمات فريدة وتألّقت بخصائص يعزّ على المفرضين فهمها واستيعابها ،
فليكن غمزها من حيث كونها جامدة متخلفة ، تتنافى مع التقدم ،
وتخاصم الحداثة .

وإذا كانت اللغة العربية هي جوهر العروبة ورابطة الإسلام ، وهي
النسب الحقيقي لكل عربي ومسلم ، هي لغة القرآن وحافظه الدين ، وهي
أعرق اللغات الحية ، وأعظمها ثراء ، وأفصحها بيانا ، وهي الوحيدة

التي قاومت كل عوامل الفناء ، وتطورت مع الزمن دون أن تفقد جوهرها أو تتغير خصائصها - إذا كانت اللغة العربية كذلك - فليكن البحث عن محاولات خبيثة لإضعافها تدريجياً حتى يتم القضاء عليها ، لتسكن الدعوة إلى كتابتها بالحروف اللاتينية مرة ، والمناداة بكتابتها كما تنطق مرة أخرى^(١) ولنسكن الثالثة - الفاصلة - هي الدعاية لتوسيع نفوذ اللهجات المحلية ، وكتابة الأدب بها ، حتى تسود لهجة كل إقليم فيندم التفاهم ويتم الانفصال ، وتموت الرابطة التي تجمع المسلمين والعرب على امتداد أوطانهم وألسعاهم .

وأقضى وأوجع ما في تلك المحاولات أن القائلين بها ليسوا أجنب وأعداء فقط ، ولكن يشاركونهم ويسهم معهم للأسف وللخجل عرب ومسلمون .

وفي تصوري أن من أوجب واجبات المثقف المسلم ، التصدي لتلك المحاولات ، وإمالة اللثام عنها وكشف أهدافها الأصلية ، وهذا التصدي لا يقتصر على مقالات ودراسات صريحة مباشرة تحتبطها ، ولكنه يجب أن يتم في كل لحظة ، وعلى كافة المستويات وفي شتى المجالات ، ولا إخال مجال الأدب إلا أوسع المجالات وأهمها ، لذلك تأتي الصفحات التالية لمعالجة زعم وادعاء - بل الأحرى أن يقال افتراء - شارك فيه الكثيرون عن سذاجة وعدم تبصر ، أو عن سوء قصد وخبث نية ، ذلك الزعم

(١) صاحب الدعوة الأولى هو عبد الميزر فهمي وبعده سلامه موسى ، وصاحب الثانية هو طه حسين الذي كتب اسمه أيامها هكذا : طاهاه .

الذى نال من الشعر العربى فى عصر النبوة والراشدين بترديد مقولات خاطئة ، مثل عداوة الإسلام للشعر ، وانشغال المسلمين عن نظامه وروايته ، وقلة عدد الشعراء ، وضعف المستوى الفنى . وليس فى مناقشة هذه الادعاءات ما يثبت من الاسلام أو يضعه موضع الاتهام الذى يتطلب دفاعا وتفنيدا وتبرئة^(١)

بل هو تبديد للنبار الذى قد يحجب الرؤية الصحيحة عن الداشنة ، ودحض لمزاعم قد تكدر نضاعة الحق ولو للحظات .

* * *

(١) قراءة فى الأدب الاسلامى والأموى : د . محمد عبد العزيز الموانى .

أولا : موقف القرآن الكريم

خير ما نستعمل به حديثنا في قضية الإسلام والشعر هو استعراض الآيات التي حوت لفظ شعر أو شاعر أو شعراء ، لأن القرآن دستور الإسلام ومنبع الأحكام ، ومنه ينهل الجميع ويستمدون .
لقد وردت الألفاظ الثلاثة في ستة مواضع عبر كتاب الله الكريم ، وهي على الترتيب :

١ — قال تعالى : ﴿ بل قالوا أضغاث أحلام ، بل افتراء ، بل هو شاعر ، فليأتنا بآية كما أرسل الأولون ﴾ (١) .

٢ — ويقول عز شأنه ﴿ والشعراء يتبعهم الغافلون ، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وذكروا الله كثيراً واتصروا من بعد ما ظلموا ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ﴾ (٢) .

٣ — كما قال جنت حكمة ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغي له ، إن هو إلا ذكر وقرآن مبين ﴾ (٣) .

٤ — وقال — وهو أصدق القائلين — ﴿ ويقولون أننا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون ، بل جاء بالحق وصدق المرسلين ﴾ (٤) .

(١) سورة الأنبياء ، آية ٥ (٢) الشعراء ، آيات ٢٢٤/٢٢٧

(٣) سورة يس آية ٦٩ (٤) سورة الصافات ، آية ٣٦/٣٧

٥ — ويقول سبحانه ﴿ فذكّر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا
مجنون ، أم يقولون شاعر تترصص به ريب اللذون أن ترهبوا فإني معكم
من المترصين ﴾ (١) .

٦ — وقال الحق - تبارك وتعالى ﴿ فلا أقسم بما تبصرون وما لا
تبصرون ، إنه لاقول رسول كريم ، وما هو بقول شاعر قليل ما تؤمنون ،
ولا بقول كاهن قليل ما تذكرون ، تنزيل من رب العالمين ﴾ (٢) .

وحين نتدبر معاني الآيات الكريمة فسنجد لها تتجها إلى ثلاثة
اتجاهات ، أو تتعرض لثلاث قضايا هي :

١ — اتهام الكفار للرسول - ﷺ - بأنه شاعر ، ونفى القرآن لهذه
التهمة الباطلة .

٢ — ادعاء الكفار والمشركين أن القرآن المظالم شعر أو من كلام
الشعراء ، ودفع الآيات البينات لهذا الادعاء .

٣ — أما القضية الثالثة التي تناولها الآيات فهي حديث عن الشعراء
وسلوكلهم ، فتقسمهم إلى فئتين بحسب سلوك كل فئة ، ثم تجدد هدير
المشركين الظالمين .

١ — القضية الأولى : نفي صفة الشاعرية عن الرسول - ﷺ -
فلا هو شاعر يمتلك سوهبة الشعر ، ولا هو قد تعلم وأجاد أدوات الشعر

(١) الطور : آية ٣٩/٣٠

(٢) الحاقة : آيات ٣٨/٤٣

وعلموه . وقد تكررت مناقشة هذه القضية في عدة آيات هي قوله سبحانه :

- (١) ﴿ بل هو شاعر . . ﴾ الانبياء ، آية ٥
 - (٢) ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغي له ﴾ يس ، آية ٦٩
 - (٣) ﴿ ويقولون أننا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون ﴾ العنكبوت آية ٢٦
 - (٤) ﴿ أم يقولون شاعر نترصد به ريب المنون ﴾ الطور ، آية ٣٠
- لقد هت الكافرون حين واجههم الرسول - صلوات الله وسلامه عليه بالقرآن ، كلام إلهي لا يأتيه الباطل ، ولا يدانيه في البلاغة والبيان أى كلام آخر ، وأسقط في يد المكابرين لأنهم لم يجدوا ما يردون به عليه من منطق سليم وحجة واضحة ، فامس إلا العناد والمكابرة ، والانحراف إلى قضايا فرعية ، وادعاءات كاذبة ، واتهموا الرسول - وهو الصادق الأمين - بأنه شاعر ، مثلما اتهموه بأنه ساحر ، أو كاهن ، أو مجنون ، أو يتلقى عن الشياطين ، أو يعرف أساطير عن الأمم الغابرة فيحكىها ، أكاذيب وافتراءات يتصدى لها القرآن العظيم بآياته البينات فيقضيها واحدة بعد أخرى ، نافيا تلك الصفات التي يحاول المشركون إلصاقها بالرسول الكريم بغيا وهدوانا .

ولو رجعنا للآية رقم واحد - وهي من سورة الانبياء - لوجدنا قبلها آيات كثيرة تحكى إعراض الكفار عن ذكر الله ، وإصرارهم على رفض ما يأتيهم به الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - لأنه - كما يدعون - بشر مثلهم ، ولا بد أن القرآن - حسب ظنهم مسحر أو شعر أو خيالات زائفة ، يقول - جلت حكمته -

﴿ ما يأتيهم من ذكر من ربهم مُحدث إلا استمموه وهم يلعبون ،
 لاهية قلوبهم وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم
 افتأتون السحر وأنتم تبصرون ، قال ربى يعلم القول فى السماء والأرض
 وهو السميع العليم ، بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراء بل هو شاعر فليأتنا
 بآية كما أرسل الأولون ﴾ .

أما الآية رقم ثلاثة فهى نفى صريح لمعرفة الرسول الكريم بفن
 الشعر وأدواته ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغي له ﴾ ثم تأكيد جازم
 بأن ما يأتى به هو قرآن يبين الحق ، ويهذى إلى سواء السبيل ليدرك
 أولوا الألباب ، وقد استخدم أسلوب الحصر فنفى أن يكون أى شيء
 مما عرفه البشر ﴿ إن هو إلا ذكر وقرآن مبين ﴾

وفى الآيات رقم خمسة يدعى الكفار والمفركون على الرسول
 عليه السلام ، صفة الجنون زيادة على الشاعرية ويمود القرآن
 من جديد إلى نفى الادعاء بالمنطق الواضح والحجة البينة ﴿ بل جاء
 بالحق وصدق المرسلين ﴾ ثم تتوالى التهم فتجسد الكهانة
 بالإضافة إلى الشاعرية والجنون ، ويأتى النفى صريحا قاطعا ﴿ فذكر فما
 أنت بعممة ربك بكاهن ولا مجنون ﴾ .

ولا تتوقف الافتراءات بل تزداد ، فـ يكون السحر والكذب :
 ﴿ وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب ﴾ (١)
 ولم يكن كفار مكة ومشركو قريش هم أول من انترى على الرسل تلك

(١) سورة ص ، آية ٤

الصفات ، لقد حكى الله جل شأنه عن تكذيب الكفار لأنبيائهم منذ إبراهيم وموسى وصالح ونوح - عليهم جميعاً صلوات الله وسلامه (كذلك ما أنى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون) (١) .

إن الجوهر في هذا النفي ، والهدف الاسمي منه هو إثبات نبوة محمد عليه السلام ، وكونه رسولا من عند الله ، فلا هو شاعر ولا ساحر ، وليس بكاهن ولا مجنون ، إنه رسول الله ، وهذا التأكيد على نفى جميع الصفات غير صفة النبوة والرسالة هو في نفس الوقت إثبات للوحي ، وأن ما جاء به قرآن تلقاه عن ربه بطريق جبريل عليه السلام .

فليس في نفى الشاعرية غرض من شأن الشعر ، أو تقليل لقيمة الشعراء ، فلقد كان ، عليه سلام الله أمياً ، ومع ذلك رفع الإسلام العلم والعلماء إلى أعلى الدرجات .

وقد فسّر ابن رشيّق « الآية قائلاً (وما علمناه الشعر وما ينبغي له) معناها : ما الذي علمناه شعراً ، وما ينبغي له أن يبلغ عنا شعراً . ولو أن كون النبي ﷺ غير شاعر غرض من الشعر ، لسكّنت أمّيته غضا من السكتابة ، (٢) ولو تروى الشعر كون قليلاً لما اندفعوا إلى وصف النبي الكريم بالشاعرية ، فهو لم يؤثر عنه نظم الشعر أبداً قبل البعثة أو بعدها ،

(١) سورة الفذاريات ، آية ٥٢

(٢) العمدة لابن رشيّق : ج ١ ص ٣١ من قراءة في الأدب الاسلامي والاموى : د . عبد العزيز المواقى ص ٧

كان يسمعه فقط ولكنه لا يشده ، وحين يريد الاستشهاد بشيء منه ، كان يطلب من أحد الصحابة قوله ، أو يشده بعد تغيير ترتيب الجمل والكلمات حتى يخلو وزنه ويفقد خاصية الشاعرية .

وقد حاول بعض الدارسين تقصى الحكمة الإلهية في حفظ الرسول منزلها عن قول الشعر ، فقالوا إنه بعث بين قوم يفخرون بروعة البيان ومحر الشعر ويزهون بالبلاغة ، وكانت معجزة الرسول وبرهات رسالته - القرآن - معجزة بيان ساحر وبلاغة رائمة ، فلو كان الرسول ينظم الشعر لاختلط نظامه مع القرآن ، والتبس على الناس .

وفي رأي أن هذا غير لازم لسببين : أولهما أن القرآن لون من البيان يخالف الشعر تماما ، فلن يخلط به ولن يلتبس على قوم تملسوا قروناً بالشعر وفنونه كعرب الجزيرة .

وثانيهما : أن الله تعالى قد كلف بحفظ القرآن من التحريف والتزييف ، ومن الخاط والالتباس (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) (١) وكان نزول القرآن بالنص (٢) ومنجها ، وتحفيظ الرسول إياه ، ومراجعته فيه مرة بعد أخرى وتوجيهه الله له بالترث والأناة : (لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه فاتبع)

(١) سورة الحجر ، آية ٩ (٢) كانت الكتب الأخرى تنزل بالمعنى الذي تتمدد صياغاته فيدخله التحريف والادعاء .

قرآنه ، ثم إن علينا بيانه (١) .

وكذلك ذهب البعض إلى أن حكمة نفي الشاعرية عن الرسول تكمن في أنه لو نظمها لوجب تفوقه على الجميع لتكون آية ، وإن يكون له التدقيق في نظريهم إلا إذا سار على مقاييسهم في الشعر، من هجاء ممدوح ، ونثر كاذب وغزل جارح ، وحديث عن الجحر والميسر، وأوهام وخيالات مضللة ، وكل ذلك يتعارض مع طريق النبوة ومبادئ الإسلام، ولو كان الرسول شاعراً لظن السكندر أن بلاغة حجته وجوامع كلمه تألف له من الشعر وتأثيره ، وسوف يدعون أن بلاغة القرآن وإعجازه البياني هو من وحى الشياطين الذين يوحون للشعراء أيضاً ، وقد كان نفي الشاعرية عنه كذلك دحذا للظن بأن رسالته خيالات ورؤى ، وأن القرآن شعر من نوع جديد ، وكان نفي الشاعرية عن الرسول ضرورياً لما عرف عن بعض الشعراء من سلوك شائن ، فلا يصح أن يتصف الرسول بصمة تضمنه موضع ريبة واتهام .

والهم في كل ذلك أن النفي لا يتوجه إلى الشعر في ذاته ، ولكن هدفه تنزيه الرسول عن كونه شاعراً ، لأن الشعر يقوم على التخييل والوهم والمبالغة ، بينما يقوم منهج الرسالة على اليقين وقوة الإقناع ، ووضوح المنطق ، ونصاعة الحجج ، فمنهج الشعر يخالف ويتعارض مع منهج الرسالة بصرف النظر عن انصافه بالحسن أو القبح .

(١) سورة القيامة آية ١٦ - ١٩

٢ — القضية الثانية : مناقشة الادعاء بأن للقرآن شعر . ومن

الواضح ارتباطها بالسابقة وتداخلها فيها ، إذ من المنطقي أنه ما دام الرسول الكريم ليس شاعراً ، فإن القرآن ليس شعراً ، وبمعبر آخر ، ليس القرآن شعراً ولا يشبه الشعر ، لأن النبي الذي بعثه عن ربه لم يكن ينظم الشعر ، ولا يعرف أساليبه وفنونه .

وقد وردت هذه القضية واضحة بيّنة في الآيات رقم (٦) ﴿فلا أنسم بما تبصرون وما لا تبصرون ، إنه لقول رسول كريم ، وما هو بقول شاعر قليل ما نؤمنون ، ولا بقول كاهن قليل ما تذكرون ، تنزيل من رب العالمين﴾ .

على أن الآيات رقم (١) تتناول القضية أيضاً في قوله كمالاً ﴿بل قالوا أضغاث أحلام بل انتراء﴾ ثم يؤكد سبحانه ﴿بل جاء بالحق﴾ .

لقد كان الهدف من نفي الشاعرية عن الرسول الكريم هو إثبات نبوته ، وتلقيه الوحي عن ربه ليبلغه إلى أمته ، ثم إلى البشرية كافة ، وهذا الوحي هو القرآن الكريم - كلام الله - نقله جبريل - عليه السلام - إلى محمد ﷺ فهو ليس تغيلات وأوهام نائم ، كما ادّعوا في الآيات رقم (١) ولا هو قول شاعر أو كاهن كزعمهم في الآيات رقم (٦) ، وهو كذلك ليس سحراً أو أساطير كما تخرصوا في آيات أخرى ، ولكنه الحق الذي يتفق مع ما جاء به الرسل السابقون حسب ما تؤكد الآيات رقم (٤) ، ثم هو قول رسول كريم ، مُنزل عليه من رب العالمين كما تقطع الآيات رقم (٦) . وتنزيه القرآن عن أن يكون شعراً غاية إثبات أنه كلام الله فقط ، ولم

يكن قصده التهوين من قيمة الشعر ، والأمر في ذلك مثله مثل تنزيه القرآن الكريم عن كونه سحراً (وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا الا سحر مبين) (١) وكذلك نفى ما ادعوه من أن القرأت قول من الشيطان (وما هو بقول شيطان رجيم) (٢) وادعى الكفار فيما ادعوه أن القرآن من الأساطير (وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين) (٣) .

ولا مرء في أن هدف الكفار والمشركين من ادعاءاتهم ، هو تكذيب الرسول - ﷺ ورفض نبوته ، فكان للنطق هو رد القرآن الكريم بتنفيذ افتراءهم وإثبات نبوة محمد الأمين ، وصدقه فيما بان به عن ربه . وحول ادعاء الكفار بأن القرآن شعر ، يبدى باحث فاضل ملاحظة تقول د من الغريب أن الرسول الكريم الذي لم يكن يعلم الشعر ، كان يدرك أن ما يوحى إليه ليس شعراً ، على حين أن أهل مكة الذين يفترض أنهم كانوا يعرفون الشعر حين يسمونه أو يروونه ، ظنوا بأن هذا الوحي كان شعراً ، وكان المتوقع عكس ذلك - انظار دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي ، ترجمة د . عبد الرحمن بدوي (٤) ونرد على تساؤله في نقطتين :

-
- (١) سورة سبأ ، آية ٤٣ (٢) سورة التكويد ، آية ٢
(٣) سورة النحل ، آية ٢٤ (٤) قراءة في الأدب الاسلامي
والأموي ، د . عبد العزيز الموائى ، ص ٦ الهامش *

(١) لا أظن أنه من الصواب القول عن عربي عاش في مكة أيام الجاهلية ، لم يعلم الشعر ، إلى الدرجة التي لا تمكنه من التمييز بينه وبين فنون القول الأخرى ، والرسول - صلوات الله وسلامه عليه - قد سمع الشعر طوال حياته ، وكان يحب بالجيد منه ويستنشد ، ويفاضل بين الشعراء . حقيقة أن المفاضلة قد تسكون على أسس خلقية ودينية غالباً ، لكننا لا نحاول عن معايير فنية أيضاً بدليل أنه حين أراد اختيار شاعر مسلم للرد على هجاء قريش له ، استمع إلى عبد الله بن رواحة وكعب بن مالك وحسان بن ثابت ، وفضل اختيار حسان رغم تساوي الثلاثة في اعتناق الإسلام ، والإيمان بقيمه والاستعداد للدفاع عنه وعن رسوله عليه السلام ، فلا شك أنه وجد في حسان مقدرة فنية ، وتمكناً من أدوات الشعر ، يؤهله للنجاح في أداء المهمة أكثر من رفيقه ، أما قوله تعالى ﴿ وما هلعناه الشعر ﴾ فلا يعني بالتأكيـد - جهل الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - بالتفريق بين الشعر وغيره ، وإنما يعني أن الرسول لا ينظم الشعر ولا يمتلك الموهبة .

(٢) وكون الكفار يظنون أن القرآن شعر ، تعبير غير دقيق ؛ لأنهم في قرارة نفوسهم متأكدون أن القرآن ليس شعراً ، وإنما أرادوا بهذا الادعاء إثارة غبار الأكاذيب حول النبي الكريم ، وحول القرآن مكبرة وعناداً ، وشغلاً للناس عن قضية الإيمان بالدين الجديد بقضايا فرعية ، فهم لا يظنون ولا يلتبس عليهم أمر القرآن وكونه ليس شعراً ، ولكنهم يدعون ويسكذبون ، بدليل ادعائهم بأنه سحر وأساطير وخيالات نائم ،

وهم حين أطلعتوا تلك الافتراءات كانوا قد خططوا لها وكشاوروا فيها ،
لقد حكى أنهم اجتمعوا يتداولون أمرهم حول كيفية مواجهة الرسول
الكريم ، وتكذيبه ، لصرف الناس عنه وعن رسالته ، فقالوا تنتهمه
بالكهانة ، فرد الوليد بن المغيرة قائلاً والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا
الكهان ، فما هو بزمرة الكاهن ولا سحبه . قالوا : فنقول ههنا ،
قال : ما هو بجهنم ، لقد رأينا الجنون وعرفناه ، فما هو بجنونه
ولا تخالجه ولا وسوسته .

قالوا : فنقول شاعر ، قال : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله :
رجزه وهزجه وقريضه ، ومقبوضه وبسيطه ، فما هو بالشعر ، (١) ومن
ذلك يتبين أن كفار مكة ومشركيها لم يلبس عليهم الأمر ولا ظنوا أن
القرآن شعر ، ولكنه العناد الذي يورث الكفر ، والمكابرة التي تعمى
عن الحق ، والجدل الأجوف لا يبين معرفة الحقيقة أبداً ، وإنما يهدف
إلى التفضيل والبلبل .

وفي مجال البلبل وإثارة الغبار ، ربما تدخل قضية فرعية أخرى هي
وجود آيات من الذكر الحكيم على أوزان شعرية معروفة (٢) وربما
اجتمع إلى الوزن اتفاق الفواصل في آيات كثيرة ، وهو ما يشبه القافية
في الشعر . ومن تلك الآيات قوله تعالى :

-
- (١) نحو أدب إسلامي معاصر : أسامة يوسف شهاب ص ١١٦
(٢) دراسات في أدب ونصوص العصر الإسلامي : د . محمد عبد القادر
أحمد ص ٤٦/٤٧

﴿ إِن يَنْتَهَوْا إِنَّغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ (١)

﴿ هِمَّاتٌ هِيَآتٌ لِّمَا تُوْعَدُونَ ﴾ (٢)

﴿ لِّمَثَلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾ (٣)

﴿ وَدَانِيَةٌ عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا ، وَذَلَّتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴾ (٤)

﴿ وَالْعَادِيَاتُ ضَبْحًا ، فَالْمُورِيَاتُ قَدْحًا ﴾ (٥)

﴿ تَبَّتْ يُدَا أُبَىٰ لُحَبٍ وَتَبَّ ﴾ (٦)

وآيات أخرى من هذا النوع ، وقد رد الجاحظ على من يتوهم وجود الشعر في القرآن قائلا « أعلم أنك لو اعترضت أحاديث الناس وخطبهم ورسائلهم ، لوجدت فيها مثل : مستفعلن فاعن كثيرا ، وليس أحد في الأرض يجعل ذلك المقدار شعرا . ولو أن رجلا من الباعة صاح : من يشتري بذنجان ، لقد تكلم بكلام في وزن : مستفعلن مفعولان ، فكيف يكون هذا شعرا وصاحبه لم يقصد إلى الشعر ؟ ومثل هذا المقدار من الوزن قد يتهيأ في جميع الكلام . وإذا جاء المقدار الذي يعلم أنه من نتاج الشعر والمعرفة بالأوزان والقصد إليها كان ذلك شعرا ، (٧) .

ولا ريب أن اشتراك باحثين عرب في مناقشة هذه النقطة قد يوقع البعض في الخطأ ، ولسكننا يجب أن نفرق بين الهدف التمهيلي للباحثين

(١) سورة الأنفال ، آية ٣٨ (٢) المؤمنون ، آية ٣٦

(٣) الصافات ، آية ٦١ (٤) الإنسان ، آية ١٤

(٥) العاديات ، آية ٢٠ (٦) المسد ، آية ١

(٧) البيان والتبيين : ج ١ ص ١٥٤ دار صعب ، بيروت .

المعرب ، وهو الذى يسعى إلى رصد الظواهر الفنية فى القرآن الكريم ، وإثبات أنه معجز ، ورغم وجود آيات على بعض الأوزان الشعرية ، إلا أنها ليست شعراً ، وهى تسمى وتنزه عنه ، والشعر لا يشابهها ولا يداينها ، فى حين أراد المنافقون والسفسفون من إثارة تلك النقطة إحياء زعم مشركى مكة وكفارها بأن القرآن ليس وحياً من الله ، وأنه من صنع بشر ، وفيه ما يشبه الشعر ويماثله .

والاقرب للهدى أن ندع مثل هذه المناقشات حتى لا تقع فى الخطأ .

٣ — القضية الثالثة : حديث عن الشعراء ، وهو ما ورد

فى قوله تعالى ﴿ والشعراء يتبعهم الغاؤون ، ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وذكروا الله كثيراً وانصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ﴾ إن الآيات تحدثت عن فريقين من الشعراء : فريق مذموم مفضوب عليه ، لأسباب تتعلق بسلوكه ، وأسلوب حياته ، ولا تتعلق أبداً بموهبة الشعر ونظمه .

وفريق مرضى^١ عنه محمود عند ربه لأسباب تتعلق به الأخرى بالتصرفات ومنهاج الحياة ولا تمس الشاعرية من قريب أو بعيد . وقد ذكر صاحب الكشف^(١) فى أسباب نزول هذه الآيات ، أنها نزلت فى الشعراء المشركين : عبد الله بن أبى وهب ومسافع بن عبد مناف

(١) تفسير الكشف ، ج ٢ ص ٤٤٠ ، من « نجاؤادب إسلامى معاصر »

ص ١١٧

وأبي عزة الجهمي وأمية بن أبي الصمات ، قالوا نحن نقول مثل قول محمد ،
وكانوا يهجون ، ويحتج بهم الأعراب يستمعون إلى أشعارهم وأهاجيهم ،
ولذلك فهم الغاؤون الذين يذبحونهم ، كما يذبح ابن كثير أنه بعد نزول
هذه الآيات توجه حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك
إلى الرسول وهم يبيكون ، قالوا قد علم الله حين أنزل هذه الآية أننا
شعراء ، فتلا النبي قوله تعالى ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾
وقال : أنتم . ثم قوله تعالى ﴿ وذكروا الله كثيرا ﴾ .

قال : أنتم ، ثم أكل : ﴿ وانتهروا من بعد ما ظالموا ﴾ وقال : أنتم ،
ويعقب أبو هلال العسكري على هذه الآيات قائلا « واستثناء الله
عز وجل في أمر الشعراء يدل على أن المذموم من الشعراء إنما هو الممدول
من جهة الصواب إلى الخطأ ، والمسروق من جهة الإنصاف والمعدل إلى
الظلم والجور ، وإذا ارتفعت هذه الصفات ارتفع الذم ، ولو كان الذم
لازما لكونه شعرا لما جاز أن يزول على أي حال من الأحوال » (١) .

وبالرغم من وضوح الآيات في نصها على المذموم من الشعراء
واستثناءها لغيرهم ، لكن البعض قد سارع إلى تصور خاطئ يجهل
القرآن مما دأب للشعر والشعراء ، ولذلك يشير إليهم « ابن رشيق »
قائلا : « فأنما احتجاج من لا يفهم وجه الكلام بقوله تعالى

(١) الصناعتين ص ١٣٢ ، نحو أدب إسلامي معاصر ص ١١٠

(والشعراء يتبعهم الغاؤون . .) الآية فهو غلط وسوء تأمل ، لأن المنصود بهذا النص شعراء المشركين الذين تنازلوا الرسول - ﷺ - بالهجوم ومستوره بالأذى ، فأما من سواهم من المؤمنين فغير داخل في شيء من ذلك ، ألا تسمع كيف استثناهم الله عز وجل ونبه عليهم فقال (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظنوا) يريد شعراء النبي ﷺ ، ينتصرون له ويحييون المشركين عنه ، (١) .

ومن عجب أن يقع في هذا الغلط وسوء التأمل منسكروا مثل الجاحظ ، له ذكاؤه وبصيرته ، وقدرته على الفهم ، يقول وقال الله تعالى وقوله الحق (وما علمناه الشعر) ثم قال (وما ينبغي له) ثم قال (ألم تر أنهم في كل واديهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون) فعم ولم يخص ، وأطلق ولم يقيد ، فمن الخصال التي ذمهم بها تكاف الصنعة والخروج إلى المباهاة ، والتشاغل عن كثير من الطاعة ومناسبة أصحاب التشديد ، (٢) وواصل الجاحظ كلامه مستهاردا مطيلا دون إشارة إلى من استثناهم الله عز وجل في الآية من الشعراء المؤمنين الصالحين والمرضى عنهم ، مما يجعل القارئ يتصور أن الذم للشعراء جميعا ، وهو ما يتعارض وباقي الآية . ولكن الصواب أن نفهم الآية على وجهها الصحيح ، والذي يقسم الشعراء إلى طائفتين :

(١) العمدة ، ج ١ ص ٣١ ، قراءة في الأدب الاسلامي والاموى

ص ٨

(٢) البيان والتبيين ج ٢ ص ٥٧٢

طائفة للشركيين الذين صدوا عن دين الله ، وحاربوا النبي وآذوا المسلمين ، فها هموا بواذى الخلافة واتبعوا سبيل الضواية ، أولئك ساءت عاقبتهم ، وإلى جهنم يحشرون .

والطائفة الثانية هم الشعراء المؤمنون الصالحون الذّاكرون لله كثيرا ، الذين نصرّوا الله ورسوله ، وانتصروا لأنفسهم ممن ظلمهم ، أولئك كمرضى عنهم وإغفر الله لهم وبالجنة يبشرون . وهذه هي الآية الوحيدة التي تتحدث عن الشعراء وسلوكهم ، وهي تعالج الأمر من زاوية إنسانية بحجة : كل إنسان - شاعر أو غير شاعر - إن آمن وعمل صالحا ونصر الله ورسوله ، فله الجنة .

وكل إنسان - شاعر أو غير شاعر - إذا كفر وصد عن سبيل الله وتعرض بالأذى لرسول والمسلمين ، فله النار وبئس المصير .

خلاصة القول إذن في موقف القرآن الكريم من الشعر والشعراء .

١ - لم ينزل في القرآن تحريم واضح صريح للشعر ، ولا ذم له من حيث كونه فنا تعبيريّا جميّلا ، ولكنه يُذمُّ إذا حاد عن طريق الخير والحق ، وكذلك كل شيء .

٢ - لا يحوى القرآن الكريم نقداً للشعراء من حيث كونهم شعراء ، ولكنهم كبقية البشر : إن أحسنوا أثبوا ونالوا للدح والثناء ، وإن أساءوا عوقبوا واستحقوا الذم والاهجاء .

٣ - نفى شاعرية الرسول مثلها مثل نفى صفات أخرى ، أو تمم أخرى ، بهدف إثبات النبوة وتكذيب الشركيين والكفار في ادعاءاتهم ،

وليست نيلا من الشعر ، ولا خطأ من شأن الشعراء ، إنما إثبات لتلقيه الوحي عن ربه .

٤ — تنزيه القرآن عن كونه شعرا هو إثبات لكونه كلام الله ، ونفى أى صفة أخرى ادعاهها المشركون كالسحر والاساطير والتخيلات ، فليس في هذا التنزيه تحقير للشعر أو غرض من قيمته ، هو تنزيه للقرآن عن مشابهة كلام البشر .

والقول الحق هو أن الشعر في نظر القرآن — كدأى نشاط إنسانى — له حدوده وشرائطه التى تنفق مع مبادئ الإسلام وقيمه ، فإن التزم بتلك الحدود ، وراعى هذه الشرائط ، فلم يخرج عن الإطار العام للدين ، وجد مكانه فى المجتمع الإسلامى ، ونما وازدهر بلا عاربة أو نقد . وإن أعرض عن تلك الشرائط وجاهر بما ينافى جوهر الدين ، وبخالف قيمه ومبادئه فلا مكان له ، وهو مطارد مذموم كدأى نشاط هدام مخرب .

بقى أن نتعرف على رأى السنة المطهرة ، وموقفها من الشعر ، فهى المصدر الثانى للتشريع بعد القرآن ، وهى مفسرة ومفصلة لما أجمل أو غمض من آياته . وقد حثنا الله جل شأنه على الطاعة التامة للرسول الكريم والاختذ والتسليم بما يحكم ويقول (والنجم إذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى) (١) . وعلى ذلك فنحن فى استمراضنا لأحاديث الرسول ﷺ — ومواقفه

(١) سورة النجم ، آيات ١ ، ٤

من الشعر والشعراء ، نضع في اعتبارنا أنها لا يمكن أن نعارض أو تناقض
أو تخالف آيات القرآن في نفس المجال ، وإذا بدا في ظاهرها أدنى مخالفة ،
فالأولى أن نراجع أنفسنا وفهمنا ، ونراجع الرواية ، وكذا بقية
الاحاديث والمواقف حتى نصل إلى الحق والصواب وإلى المعنى المراد فعلا .

ثانيا : موقف الرسول - عليه السلام - قولاً وفعلًا

سنة النوى - عليه صلوات الله وسلامه - أقوال وأفعال أو هي آراء ومواقف ، أقوال هي ما يعرف بالأحاديث الشريفة ، وقد حفظت ودونت وحفظت لتكون مرجعا للأحكام والفتاوى . والأفعال هي تصرفات وأنواع من السلوك صدرت عن الرسول الكريم في ظروف وأحداث فتتألف الرواة لتكون - أيضا - مثالا يحتذى وهديا يتبع . وسوف نتأمل في هذه الأحاديث أو الأفعال ، كما نستقري تلك التصرفات والأفعال حتى نصل إلى الحقيقة .

والسنة المطهرة في موقفها من الشجر والشعراء قد ترحب وتحبذ وتثيب ، وقد تتف بمحايدة موضوعية فترضى عن الشعراء إن أصاب طريق الحق ، وتأبأ وترفضه إن ضل وانحرف ، ثم هي قد تعارضه وتعطده لسبب منطقي ودفاعا عن الهدى والدين .

هناك إذن مواقف ثلاثة : كراهة ، موضوعية ، ترحيب . ولنبدأ بموقف الكراهة والمعارضة ، لأن نصوصه قليلة محدودة ، وسوف يفسرها ويرد عليها ما يرد من أحاديث وأفعال في النوعين الآخرين .

أولا : موقف الكراهة ، أقوال وأفعال : عن أبي هريرة .

١ - لأن يمتلىء جوف رجل قميحا حق يريه ، خير له من أن يمتلىء شعرا (١) .

(١) فيض "القدیر" : ج ٥ ، ص ٢٥ حديث رقم ٧٢١٨

يريه : يلهظه ويخرجه من فيه .

(٢) وفي رواية أخرى «لأن يتلى جوف الرجل قبحاً حتى يريه»
خير له من أن يتلى شعراً» (١) .

(٣) وفي رواية ثالثة «لأن يتلى جوف أحدكم قبحاً خير له من أن
يتلى شعراً» (٢) .

(٤) وهناك رواية رابعة لنفس الحديث «لأن يتلى جوف أحدكم
دماً أو قبحاً خير له من أن يتلى شعراً» .

(٥) يروى في نصين فقط أن رسول الله - عليه السلام - قد نهى
عن رواية قصيدة وأمية بن أبي الصلت «في رثاء قتلى قريش يوم بدر»، وقصيدة
«الاعشى» التي يرثي بها «علقمة بن علاثة»، قال البغدادي في خزانته :
ذكر أن النبي - ﷺ - رخص في الأشعار كلها إلا هاتين - وكامتين :
كلمة أمية بن أبي الصلت في أهل بدر ، وكلمة الأعشى في علقمة
بن علاثة» (٣) .

(٦) عن أم المؤمنين - عائشة - رضى الله عنها : قال صلوات الله
وسلامه عليه : «اللهم من هجاني فالتمه ، فكأن كل هجاء هجانة
لمنة» (٤) .

(١) سنن ابن ماجه : كتاب الادب ، باب ما كره من الشعر ص ٤٢

(٢) دراسات في أدب ونصوص العصر الاسلامي ص ٤٣

(٣) نحو أدب إسلامي معاصر .

(٤) دراسات في أدب ونصوص العصر الإسلامي ص ٤٣

(٧) حين أسلم « بجير بن زهير بن أبي سلمى » أرسل إليه أخوه « كعب بن زهير » يلومه على تركه دين آبائه ، ويتطاول على الرسول الكريم في شعره ، فأهدر الرسول دمه وأباح قتله .

(٨) كذا أثر عن النبي - ﷺ - أنه أهدر دم الشعراء الذين هجوه ، واعتدوا على أعراض المسلمين .

(٩) وأمر الرسول بقتل رجل ممن كانوا يهجون ه و هرب ابن الزبير السهمي وهبيرة بن أبي وهب الخزومي خوفاً لهجاءهما رسول الله (١) .

ولنناقش هذه النصوص والأخبار نقاش العقل والمنطق :

(١) يقول العلامة « المناوي » صاحب فيض القدير « في شرح الحديث ، خير له من أن يتلى شعرا ، أنشأه أو أنشده لما يؤول إليه أمره من تشاغله به عن عبادة ربه ، قال القاضي : والمراد بالشعر ما تضمن تشبيها أو هجاء أو مفاخرة ، كما هو الغالب في أشعار الجاهلية .

وقال بعضهم : قوله « شعرا » ظاهره العموم في كل شعر ، لكنه مخصوص بما لم يشتمل على الذكر والزهد والواعظ والرفائق مما لا إفراط فيه .

وقال النووي : هذا الحديث محمول على التجرد للشعر بحيث يغلب عليه فيشغله عن القرآن والذكر .

(١) دراسات في أدب ونصوص العصر الإسلامي ص ٤٣

عن سعد وأبي سعيد قالا : بينما نحن نسير مع رسول الله ﷺ ، إذ عرض شاعر ينشد ، فقال رسول الله ﷺ : خذوا الشيطان أو امسكوا الشيطان ، ثم ذكر الحديث السابق ، (١) .

كما ورد في سنن ابن ماجه شرحاً للحديث : وقد فسرهُ الفقهاء على أنه المقصود أن يثاب الشعر على الرجل يشغله عن ذكر الله وعن القرآن والحديث ، (٢) .

وقبل أن نتخذ رأياً في الحديث نشير إلى أن عائشة - أم المؤمنين رضى الله عنها - قالت حين سمعت رواية أبي هريرة : لم يحفظ أبو هريرة الحديث ، إنما قال رسول الله ﷺ : لأن يمتلىء جوف أحدكم قبيحاً ودماً ، خير له من أن يمتلىء شعراً مهجيتاً به ، (٣) .

وبهذا التصحيح من أم المؤمنين ينبغي الحق ، فلا ريب أن السنة النبوية تشرح القرآن وتوضحه ، فلو أخذنا برواية أبي هريرة لكان الحديث مخالفاً للقرآن ولأقوال وأفعال أخرى للرسول المصطفى ، أما رواية عائشة رضى الله عنها فتحدد الشعر المذموم - هجاء الرسول - وهو ما يوافق آى القرآن وما يؤكد الحديث رقم (٦) الذى يلعب من

(١) فيض القدير ، ج ٥ ص ٢٥٩ - الشرح .

(٢) سنن ابن ماجه ، كتاب الأدب ، باب ما كره من الشعر ص ٤٢

(٣) نحو أدب إسلامى معاصر ص ١١١

هجاء رسول الله ، وهو كذلك لا يتعارض مع رأى النبي وموقفه - ^{عليه السلام} من الشعر والشعراء عامة ، وبالطبع ينسحب ما قلناه على بقية الروايات الأخرى لنفس الحديث ، وكذا فإن الحديث رقم (٥) يثبت صحة هذا التفسير ، فالتصديتان المنهى عنهما تخوضان في أعراض المسلمين وتهمجدان الكفر وتهاجمان الدين الحنيف ، ودليل ذلك أن أشماراً كثيرة لامية بن أبي الصلت كانت تعجب الرسول عليه السلام ، وأن أشعار الأعشى - غير ما ذكر - كانت تلشد بلا غصاصة .

بقيت مواقف الرسول - عليه السلام - بمن هجوه ، حين أهدر دمه و قتل من بقى على كفره حين ظفر به ، ولا شك أن ذلك يتفق وينسجم مع الحديث رقم (٦) ومع رواية أم المؤمنين للحديث الأول ومع القرآن (وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب يتقلبون) (١) ودليل ذلك أن من تاب منهم عفى عنه الرسول وأكرمه ، مثل كعب ابن زهير وغيره .
بقي ما ورد فى شرح الحديث الأول عند النزاوى من حديث سعد وأبي سعيد عن قول المهبطى حين عرض شاعر ينشد : « خذوا أو امسكوا الشيطان » لم يوضح الراوى نوع ما كان ينشده من شعر ، فلهذا كان هجاء مرذولاً يكفر صاحبه ، ولهله فحش من القول يستحق قائله الرجم ، وربما كان هياماً فى أودية الضلال يجب أن يحارب ، وما كان رسول الله ليقول عنه « الشيطان » إلا لسبب ما ذكر .

(١) سورة الشعراء آية ٢٢٧

- ٢ — الموقف الموضوعى المحايد : يحسن ما كانت حسنا موافقا لمبادئ الدين وقيمه ، ويحارب ما كان سيئا منافيا للدين وجماليته .
- ١ — عن عائشة — رضى الله عنها — الشعر بمنزلة الكلام ، فحسنه كحسن الكلام وقيده كقبح الكلام ، (١) .
- ٢ — ورواية أخرى لنفس الحديث : إنما الشعر كلام مؤلف ، فما وافق الحق منه فهو حسن ، وما لم يوافق الحق منه فلا خير فيه ، (٢)
- ٣ — وتقول أم المؤمنين فى رواية أخرى : الشعر فيه كلام حسن وقبيح ، نخذ الحسن واترك القبيح ، (٣) .
- ٤ — ولهذا الحديث رواية رابعة أنه عليه السلام قال : إنما الشعر كلام ومن الكلام خبيث وطيب ، (٤) .
- ٥ — لا تدع العرب الشعر حتى تدع الإبل الحنين (٥)
- ٦ — عن ابن عباس : آمن شعر أمية بن أبى الصلت ، وكفر قلبه ، (٦) .

(١) فيض القدير : ج ٤ ص ١٧٥ ، حديث رقم ٤٩٣٩

(٢ ، ٣) دراسات فى أدب ونصوص العصر الإسلامى ص ٤٠

(٤) نحو أدب إسلامى معاصر ص ١١٨

(٥) فيض القدير : ج ١ ص ٥٧ رقم ١٩

(٦) المرجع السابق ج ١ ص ٥٢٤ حديث رقم ١٠٦٧

٧ - عن أبي هريرة د أشعر كلمة تكلمت بها العرب كلمة ليبيد :
ألا كل شيء ما خلا الله باطل ، (١) .

٨ - عن النبي ﷺ د ما وُصف لي أعرابي قط فأحببت أن أراه
إلا عنزة ،

٩ - امرؤ القيس صاحب د لواء الشعراء إلى النار ، عن أبي هريرة
وعنه أيضا د امرؤ القيس قائد الشعراء إلى النار لأنه أول من أحكم
قوانينها ، (٢)

١٠ - قال يزيد بن مسلم الخزاعي عن أبيه ، عن جده ، قال
دخلت على النبي ﷺ - ومنشد ينشده قول شريك بن عامر المطلق :

لا تأمنن ، وإن أمسيت في حرم

إن المنايا تحمى كل إنسان

والخير والشمر مقرونان في قرن

بكل ذلك يأتيك الجديدان

فقال النبي ﷺ ولو أدرك هذا الإسلام لأسلم ، (٣)

١١ - حين سمع الرسول عليه السلام قول طرفة بن العبد :

متبدي لك الأيام ما كنت جاهلا

ويأتيك بالأخبار من لم تزود

قال عليه السلام : وهذا من كلام النبوة ، (٤)

(١) نحو أدب إسلامي معاصر ص ١١٨ (٢) فيض القدير

ج ٢ ص ١٨٦ (٣ ، ٤) المعقد الفريد ج ٣ ص ٩٨ / ١٠١

(١٢) حين أنى الطليل بن عمرو السدوسي إلى الرسول ﷺ وأنشده
أبياته :

ولا - وإله الناس - نألم حريمهم
ولو حاربنا من هيب وبنو فهم
أسلمنا على خسف ولست بخالد
وما لي من واق ، إذا جاءني حتمي
فلا سلم حق تحفز الناس خيفة
ويصبح طير كائنات على سلم
فأعرض عنه الرسول الكريم ، لما في شعره من روح جاهلية تعجد
العدوان وتسمى للانتقام وتشفي بالأذى ، ثم وجهه للسبيل الإهدى فقرأ
عليه سورة الإخلاص والمودتين.

(١٣) وعن عبد الله بن رواحة أن النبي الكريم سأله ، أخبرني .
ما الشعر يا عبد الله ؟

فقال : « شيء يحتلج في صدري فينطلق به لساني »
قال « فأنشدني » : فأنشده قصيدته التي يقول فيها :
قبلت - لله - ما آتاك موت حسن
فموت عيسى - بإذن الله - والقدر

فقال النبي ﷺ وإياك قبلت لله ، وإياك قبلت لله ، (١)

لا ريب أن بعض الحيرة شتمنا حين نقرأ هذه الأحاديث فنجد الرسول يرفع بعض الشعراء إلى مصاف النبوة ، ويحكم على البعض بنار جهنم ، لكننا لو تريننا في تفهمها ، واستعنا بالشروح وفسرنا بعضها ببعض لوصلنا إلى لب الحقيقة .

إن الأحاديث الأربعة الأولى واضحة المعنى : الشعر كأي كلام آخر ، منه الطيب الذي يقبله الرسول ويحنا على قبوله ، ومنه الخبيث الرديء الذي يدينه - صلوات الله وسلامه عليه - ويحذرنا منه .

والحديث الخامس يرى في الشعر فن العرب الأول ، الذي أجادوه ، وتعلقوا به تعلقاً شديداً ، فصار جزءاً من طبيعتهم لا يفارقهم ولا يتركوه ما عاشوا ، وهو قول صادق صحيح ، وفي شرح الحديث رقم (٦) قال الزنجشري عن أمية : كان داهية من دواهي ثقيف ، وثقيف دهاة العرب ، ومن دهااته ما هم به من ادعاء النبوة ، وكان جلابة للماوم جوالاً في البلاد (وكفر قلبه) أي اعتقد ما ينافي شعره المشحون بالإيمان والحكمة والتذكير بآلاء الله وأيامه ، فلم ينفعه ما تلفظ به مع جحد قلبه ، روى مسلم عن عمرو بن الشريد قال : دعت النبي ﷺ فقال : هل معك من شعر أمية ؟ قلت نعم ، فأشده مائة بيت فقال : لقد كاد أن يسلم في شعره . .

أما شرح الحديث رقم (٧) فهو ، وفي رواية : أصدق كلمة قالها شاعر

(١) فيض القدير ج ١ ص ٥٧

وفي أخرى «أصدق بيت قاله الشاعر ، وفي أخرى «أصدق بيت قاله الشعراء ، وفي أخرى «أصدق كلمة قالتها العرب ، وهذا قريب من قوله تعالى ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ . . .

وروى السانفي في مشيخته البغدادية عن يعلى بن جراد قال «أنشد ليبي النبي ﷺ قوله : «ألا كل شيء ما خلا الله باطل ، فقال «صدقت ، فقال : وكل نعيم لا محالة زائل ، فقال «كذبت ، فنعيم الآخرة لا يزول ، (١) أما الحديث رقم (٨) ورقم (٩) فيفسران بعضهما ، لقد كان عنتره مجسداً للقيم النبيلة : الشهامة والروعة والإباء والشجاعة ، وكان شهره صورة صادقة لحياته وسلوكه ، فهو يقول ما يفعل ، لا يكذب ولا يتقول ، وهو لا يقول هجاء مقذفا ولا غزلا فاضحا أو أى كلام يؤذى .

وكان امرؤ القيس على التقيض من ذلك : فاحش القول ، إباحي النزل ، سوء السلوك ، كاذب مدعي .

فلا غرابة أن يحكم النبي على امرئ القيس بقيادة الشعراء من أمثاله إلى النار ، ويتمنى ﷺ لو كان قد رأى عنتره .

أما بقية المواقف من لقاءات الرسول بالشعراء واعتيابه على أشعارهم بما يفيد الإعجاب والتقدير ، فهي تندجم مع خلاصة الأحاديث السابقة : استحسن ما يتفق مع الدين والخلق القويم ، واستهجن ما يخالفهما .

(١) فيض للتقدير ج ١ ص ٥٢٤

الموقف الثالث : ترحيب وإثابة : أقوال وأفعال .

١ — عن كعب بن مالك — رضى الله عنه — قال رسول الله ﷺ :
 « إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه »^(١) وفي شرح الحديث قال « أراد بالجهاد
 باللسان هجو الكفر وأهله ، وهذا إلى ظاهر الأخبار أقرب ، ومقصود
 الحديث أن المؤمن شأنه ذلك فلا ينبغي أن يقتصر على جهاد أعدائه
 باللسان ، بل يضم إليه جهاد اللسان ، عن كعب بن مالك قال : لما نزلت
 ﴿ والشعراء يتبعهم الغاؤون ﴾ أتيت رسول الله ﷺ فقلت : ما ترى في الشعراء ؟
 قال : إن المؤمن يجاهد . . . الحديث .

٢ — وقال صلوات الله عليه — لكعب بن مالك « إن المؤمن يجاهد
 بسيفه ولسانه ، والذي نفسى بيده ، لكان ما ترمونهم به نضح النبل »^(٢)
 ٣ — عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف أنه سمع حسان بن ثابت
 الأنصاري يستشهد أبا هريرة فيقول : يا أبا هريرة نشدتك بالله ، هل
 سمعت رسول الله ﷺ يقول : يا حسان أجب عن رسول الله ، اللهم أيده
 بروح القدس ؟ قال أبو هريرة : نعم ،^(٣)

(٤) وعن البراء — رضى الله عنه — أن النبي ﷺ قال لحسان « هاجهم
 — أى قال هاجهم — وجبريل معك »^(٤) .

(١) فيض القدير : ج ٢ ص ٣٨٦ حديث رقم ٢١٠٤

(٢) دراسات في أدب ونصوص العصر الاسلامي ص ٤٠

(٣) صحيح البخارى ج ٨ ص ٤٥

(٤) السابق ج ٨ ص ٤٥

(٥) عن أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - قال رسول الله ﷺ :
« هجاءم تحسان ، فشقى واشتفى » ، (١) .

(٦) وفي رواية أخرى : قال صلوات الله وسلامه عليه : « أمرت
عبد الله بن رواحة بهجاء قريش فقال وأحسن ، وأمرت كعب بن مالك
فقال وأحسن ، وأمرت حسان بن ثابت فشقى واشتفى » ، (٢) .

(٧) بعد هجرة الرسول الكريم للمدينة المنورة ، اشتد هجاء
الشعراء المشركين - عبد الله الزبيري وضرار بن الخطاب وأبي سفيان
بن الحارث بن عبد المطالب وعمرو بن الماص - اشتد هجاءهم للرسول
والمسلمين ، فقال عليه السلام للأَنْصار : « ما يمنع القوم الذين نصرُوا
رسول الله ﷺ أن ينصروه بألسنتهم ؟ » ، فقال حسان : « أنا لما
يا رسول الله ، قال الرسول الكريم : كيف تمجؤهم وأنا منهم ؟ » .

فقال : « والله لأسلّمتك منهم كما تسلّ الشعرة من العجين . فيقول له
الرسول : اذهب إلى أبي بكر فليحدثك حديث القوم وأيامهم وأحسابهم ،
ثم ارجعهم واجبريل معك » ، (٣) .

(٨) وجاء في العقد الفريد : « ولو لم يكن من فضائل الشعر إلا أنه

(١) فيض القدير ج ٦ ص ٣٥٢ حديث رقم ٩٥٨٤

(٢) دراسات في أدب ونصوص العصر الإسلامي ص ٤٩

(٣) راجع كتاب الخطبة : د . درويش الجندى ص ٦٤

أعظم جند يحنّده رسول الله ﷺ - على المشركين ، يدل على ذلك قوله لحسان دشن الخطاريك على بني عبد مناف ، فوالله لشعرك أشد عليهم من وقع السهام في غبش الظلام وتخبط عشي فيه (٥) .

وقال والذي بميثك بالحق نبيا لاسنك منهم سل الشعرة من المعجين ، ثم أخرج لسانه فضرب به أرنبة أنفه ، وقال والله يا رسول الله انه ليخيل إليّ أني لو وضعته على حجر لفلقه أو على شعر لفلقه ، فقال النبي ﷺ : أيد الله حسان في هجوه روح القدس ، (١) .

(٩) وقال ﷺ متعبا على هجاء حسان ولهذا أشد عليهم من وقع النبل ، (٢) .

(١٠) حين أنشد حسان قصيدته التي يردّها بها على أبي سفيان بن الحارث أمام الرسول - ﷺ دعا له بالجنة مرتين ، فعندما قال :

هيجوت محمدًا فأجبتُ عنه

وعند الله في ذاك الجزاء

قال صلوات الله وسلامه عليه « جزاؤك عند الله الجنة يا حسان » .
ولما وصل إلى قوله :

(٥) أظن المنصور : وتخبطوا يمشون فيه ، أي بني عبد مناف .

(١) العقد الفريد ص ١٣٠ ج ٣

(٢) دراسات في أدب ونصوص العصر الإسلامي ص ٤٠

فأنت أبي ووالده وعرضي

لعرض محمد منكم وفاء

قال النبي الكريم: «وفاك الله حر النار».

(١١) عن أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - «رووا أولادكم الشعر تعذب ألسنتهم»، (١).

أما مواقف الرسول الكريم من إنشاد الشعر ومن الشعراء فهي عديدة يصعب حصرها، ولكننا نستعرض أمثلة منها لاستكمال الصورة .
(١) يقول جابر بن سمرة «جالست النبي ﷺ أكثر من مائة مرة، فكان أصحابه يتناشدون الشعر ويتذكرون أشياء من أمر الجاهلية وهو ما كنت فرحاً تبسم معهم»، (٢).

(٢) ورد في تفسير القرطبي أن الحليل بن أحمد قال: «كان الشعر أحب إلى رسول الله من كثير من الكلام»، (٣).

(٣) سمع رسول الله ﷺ أم المؤمنين عائشة وهي تنشد لزهير بن حباب قوله:

ارفع ضميمك لا يحل بك ضعفه

يوماً ، فتدركه عواقب ما جنى

(١) المقدم الفريد ج ٣ ص ٩٩/١٠٠

(٢، ٣) نحو أدب إسلامي ص ١١٨

يجزيك أو يثني عليك فإن من

أنثى عليك بما فعلت كن جزى

فقال النبي « صدقة يا عائشة ، لا شكر الله من لا يشكر الناس » (١)

٤ — عن الأصمعي أن رجلا جاء إلى النبي الكريم فقال : (٢)
أنشدك يا رسول الله ؟ قال : نعم ، فأشدد :

تركت القيان وعزف القيان

وأدمنت نصليّة وابتهالا

وسكر المشقر في حومة

ونثق على المشركين القتالا

أيا رب لا أغبن صدقة

فقد بعت مالى وأهلى بدالا

فقال النبي - صلوات الله وسلامه عليه : « ربح البيع ، ربح البيع » .

٥ — وجاء في العقد الفريد أيضا أن النبي ﷺ قال لسكيب
ابن مالك « لقد شكر الله لك قولك » : (٣)

زعمت سخيّة أن تغالب رهما

ولينغلبن مغالب مغالب

(١ ، ٢) — العقد الفريد : ج ٣ ، ص ١٠٠

(٣) العقد الفريد : ج ٣ ، ص ١٠١

٦ - موقف الرسول الكريم من الشاعر كعب بن زهير : كنا قد
أشرفنا في موقف الكراهة إلى اهدار النبي ﷺ لدم كعب بن زهير بعد
ما قاله من شعر يمرض فيه بالإسلام ورسوله ، ومنه هذه الأبيات (١) :

ألا أبلغنا عني بجيراً رسالة

فهل لك فيما قلت بالخيف هل لك

شربت مع المأمون كأساً روية

فأنهلك المأمون منها وعليك

وخالفت أسباب الهدى وتبعته

على أي شيء - ويب غيرك - ذلك

على خلق لم تلف أمّاً ولا أباً

عليه ، ولم تدرك عليه أخاً لك

وخاف بغير على أخيه فكتب إليه يحذره لأن الرسول يبيع دم من
يهجوه حرصاً على الدين وحماية لأعراض المسلمين .

وأنه لم يبق من آذوه سوى هبيرة بن وهب وابن الزبير اللذين
هربا منه ، فإن كانت لك في نفسك حاجة فأقدم عليه ، فإنه لا يقتل أحداً

(١) العصر الإسلامي : د . شوقي ضيف ص ٨٤ ويتصدد بالفظ

المأمون رسول الله ﷺ ، أو أبابكر رضي الله عنه .

أنا تائباً ، وإن أنت لم تفعل فأنج بنفسك ، فلما ورد على كعب كتاب
أخيه خاف على نفسه فأعد تصيدته الشهيرة « بانث سعاد » وقدم إلى مكة
فذهب لأبي بكر الذي صاحبه لمسجد الرسول — وهو متلثم بعمامته —
وقال : يا رسول الله هذا رجل جاء يبائعك على الإسلام ، فبسط النبي
يده الشريفة ، وكشف كعب عن وجهه وقال : هذا مقام العائذ بك
يا رسول الله ، وأنا كعب بن زهير ، فأمنه الرسول واستنشدته لاميته :

بانث سعاد فقلبي اليوم متبول

متيم إثرها ، لم يفد مكبول

وبعد النزول ووصف الرحلة والنافاة يشير إلى خوفه :

يسعى الوشاة جنايها وقولهم

إنك يا ابن أبي سلمى ، لمقتول

فقلت خلوا سبيلى لا أبا لكم

فكل ما قدّر الرحمن مفعول

ويطلب إلى الاعتذار وطلب العفو من رسول الله :

أنبئت أنت رسول الله أوعدنى

والعفو عند رسول الله مأمول

مهلاً هداك الذى أعطاك نافلة

الفرقان ، فيها مواهظ وتفصيل

لا تأخذنى بأقوال الوشاة فلم
أذنب ، وإن كثرت فى الأقاويل
ويثنى بمدح الرسول والمهاجرين :
إن الرسول لنور يستضاء به
مهند من سيوف الله مسلول
فى عصابة من قریش قال قائلهم
بيطن مكة لما أسلموا ، زولوا
زالوا فما زال أنكاس ولا كشف
عند اللقاء ولا ميل معازيل
شم المرانيف أبطال ، لبوسهم
من نسج داود فى الهيجا سراويل

د قال كعب بن زهير : فلما ختمت القصيدة رعى على رسول الله —
ﷺ — بردة كانت عليه . فلما كان زمان معاوية — رضى الله عنه —
بعث إلى كعب بن زهير : د بعنا بردة رسول الله ﷺ بمشيرة آلاف ، فوجه
إليه الجواب د ما كنت لأوتر بثوب رسول الله ﷺ أحدا . فلما مات
كعب بعث معاوية إلى أولاده بمشرين ألفاً ، وأخذ منهم البردة ، (١) .

(١) شرح النبريزى على بابت سماد : د . عبد الرحيم الجليل ص ١

وقبل أن ننتقل لموقف آخر ، نشير إلى قصة تتصل بزهير وقصيدته
وترويتها معظم السكتب ، تقول القصة إن كعبا عرض بالأنصار في البيت
التالى :

يمشون مشى الجمال الزهر يصممهم

ضرب إذا ورد السود التنايل

وأن الرسول — عليه السلام — قال له « لولا ذكرت الأنصار
بجزير فإنهم لذلك أهل » ، وقال المهاجرون « ما مدحتنا إذ هجوتهم » فقال
كعب أبيتا يمدح فيها الأنصار :

من سره كرم الحياة فلا يزل

في مقنب من صالحى الأنصار

ورثوا للكارم كبرا عن كابر

إن الحيار هم بنو الأخيار

وأرى القصة ملفقة لا يقبلها المنطق للأسباب التالية :

(١) قيل إن تعريضه بالأنصار يرجع إلى تهمهم له ومحاولة قتله
لما بدر منه في حق الرسول ، والفروض أن هذا قد حدث حين قابل
رسول الله ، طي حين أن القصيدة ممددة ومنظومة مسبقا ، فقال قصيدته
التي أولها :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول

وفيها يقول :

نبئت أنت رسول الله أوعدني

والعهو عند رسول الله مأمول

ثم أتى رسول الله . . . (١) أى أنه نظم القصيدة قبل اللقاء وهو
أمر طبيعي ، فلا يعقل أن يرتجل قصيدة من سبعة وخمسين بيتاً في لحظة
اللقاء ، فكيف عرف مقدماً أن الأنصار سوف يتجهون به ويرغب أحدهم
في قتله ، فيهجوهم ؟

(٢) ليس في البيت أية إشارة إلى الأنصار حتى يعمد موجهها إليهم
فضلاً عن أن يكون تعريضاً بهم .

لقد بدأ مدح المهاجرين بقوله :

في عصبة من قریش ...

شم العرائن ...

لا يفرحون إذا نالت ...

يمشون مشى الجبال ...

لا يقع الطمن إلا في نحورهم ...

إنها سبعة أبيات تفضي على نسق واحد ، والضمير فيها للأنابيين (هم)
يعود على المهاجرين (٢)

(١) الشعر والشعراء : ابن قتيبة ص ٧٠

(٢) راجع القصيدة في ديوان كعب بن زهير أو شرح التبريزي .

٣ - في شرح الخطيب التبريزي للقصيدة لايشير إلى مسألة التعريض
قط ، وهو يحكي مناسبة القصيدة في رواية عن كعب نفسه بطريق أبي بكر
الأنباري عن الحجاج ذي الرقية بن عبد الرحمن بن عقبة بن كعب (١)
فهي ثقة .

٤ - معنى البيت يقول : إن المهاجرين يشنون إلى الحرب في ثقة
وثبات وتؤدة - مثل الجمال - وأن هجومهم على الأعداء وضربهم إياهم
يحملهم في منمة وعصمة ، في الوقت الذي يفرون ويحبين كل أسود قصير .
وصفة السواد والقصر هنا تنصرف للأعداء - ربما الكفار -
الذين يفرون .

٥ - أما قول المهاجرين « لم تمدحنا إذ هجومهم » فقد يكون
تحريفا بسبب النسيان أو لفرض في النفس ، وربما كان القول لم تمدحنا إذ
نسيتمهم أو تجاهلتمهم ، لأنه لم يذكر الانصار . وأما قول الرسول الكريم
« لولا ذكرت الانصار » فهو توجيه نبوي ، لقد آخى الرسول - عليه
صلوات ربه وسلامه - بين المهاجرين والانصار في كل شيء . فأحب
ألا يخص الشاعر فريقا بالمدح دون الآخر ، فيجرح مشاعره ، لذلك
يلفتة إلى استرضائهم كما استرضى إخوانهم المهاجرين .

ونعود لمواقف الرسول من الشعراء :

مع النابتة الجمعدى : قدم النابتة الجمعدى - أبو ليلى - على رسول الله

ﷺ فأنشده :

(١) شرح التبريزي ص ١٥

أتيت رسول الله اذ جاء بالهدى

ويتلو كتابا كالحجزة نيرا

فلما وصل إلى قوله مفاخرا :

بلغنا السماء : مجدنا وجدودنا

وإنا لئرجو فوق ذلك مظهرا

فسأله النبي : « إلى أين يا أبا ليلى ؟ »

قال : إلى الجنة - بك يا رسول الله .

فقال النبي : « الجنة إن شاء الله »

وأكل إنشاده ، فحين بلغ قوله :

ولا خير في حلم إذا لم تكن له

بواد تجمي صفوه أن يكذرا

ولا خير في جهل إذا لم يكن له

حليم إذا ما أورد الأمر أسدرا

فقال رسول الله - ﷺ - « صدقت ، لا يفضض الله فاك » فماش

مائة وثلاثين سنة لم تنقص له سن (١) .

(٨) موقف الرسول الكريم من أبي جرول الجشمي : وينقل صاحب

(١) الشعر والشعراء : ص ١٧٧ والعقد الفريد ج ٣ ص ١٠٠

المقد عن ابن هشام : حدثني أبو جرول الجشعي وكان رئيس قومه ،
قال : أسركنا النبي ﷺ يوم حنين ، فبينما هو يميز الرجال من النساء إذ
وثبت فوقفت بين يديه وأنشدته :

امنن علينا رسول الله في حرم

فإنك المرء ترجوه وتنتظر

امنن علي نسوة قد كنت ترضعها

يا أرجح الناس حلما حين يختبر

إننا للشكر للنعما إذا كفرت

وعفدنا بعد هذا اليوم مدخر

فذكرته حين نشأ في هوازن وأرضعوه ، فقال عليه السلام : أما
ما كان لي ولابني عبدالمطلب فهو لله ولكم ، فقالت الأنصار : وما كان لنا فهو
لله ولرسوله ، فردت الأنصار ما كان في أيديها من الدراهم والأموال .
ويعقب ابن عبد ربه — مؤلف المقد — بقوله : « فإذا كان هذا مقام
للشعر عند النبي ﷺ فأى وسيلة تبلغه أو تعبره ؟ » (١) .

(٩) موقفة — ﷺ — من عمرو الحزاعي :

روى أن عمرو بن سالم الحزاعي قدم على الرسول مستنصرا ، وكانت
خزاعة في حلفه ، فاعتدت عليها قریش — فقال :

(١) المقد الفريد ص ١٠٢

يا رب إني ناشد محمدا
 حلف أبيه وأبينا الأتلا
 قد كنت والدا وكنا ولدا
 تمت أسلمنا فلم نزع يدا
 فانصر هداك الله نصرأ أعتدا
 وادع عباد الله يأتوا مددا
 فيهم رسول الله قد تجردا
 إن سيم خسفا وجهه تربدا
 إن قریشا أخلفوك الموعدا
 ونقضوا ميثاقك المؤكدا
 وزعموا أن لست أدعو أحدا
 وهم أذل وأفل عددا
 هم يبتونا بالوتير هجدا
 وقتلونا ركبا ومسجدا

فما إن سمع الرسول هذا الشعر حتى دمت عيناه وقال « نصرت
 ياعمرو بن سالم » (١). ويكمل صاحب المقدم عن ابن هشام دسم عرض

(١) الأدب في عصر النبوة والراشدين : د. صلاح الهادي ص ٢٢٥

عارض من السماء فقال رسول الله ﷺ : إن هذه السحابة تستهل بمصر
في كعب ، وتلك الحادثة كانت أحد الأسباب المباشرة لفتح مكة (١) .

(١٠) مع العلاء بن الحصين : جاء العلاء يوما إلى الرسول صلات الله
عليه ، فسأله : هل تروى من الشعر شيئا ؟

فأنشده : : فحى ذوى الاضغان تسب قلوبهم

تحيتك الحسنى فقد ترفع الشغل

فإن حسوا بالسكره فاعف تكرا

وإن حبسوا عنك الحديث فلا تسل

فإن الذى يؤذيك منه سماعه

وان الذى قالوا وراءك لم يقل

فلما سمع هذا الشعر قال قولته المشهورة : إن من الشعر لحكمة ، (٢) .

(١١) موقفه من قيس بن الحطيم : ويروى أبو الفرج خبرا عن

أنس بن مالك يقول فيه أن رسول الله جالس في مجلس ليس فيه إلا خزرجى
واحد ، ثم استنشدهم قصيدة قيس بن الحطيم ، معنى قوله :

أتعرف رسما كاطراد المذاهب

لعمرة وحشا غير موقوف راكب

(١) "المقد الفريد" ص ١٠٢

(٢) "الأدب في عصر النبوة والراشدين" ص ٢٢٢

فأشده بعضهم إياها ، فلما بلغ قوله :

أجاد لهم يوم الحديقة جاسرا

كأن يدي بالسيف محراق لآعب

فالتفت إليهم رسول الله ﷺ وقال : هل كان كما ذكر ؟ ، فشهد له ثابت بن قيس بن شماس ، وقال : والذي بعثك بالحق يا رسول الله ، لقد خرج الينا يوم سابع عرسه . . . فجاءنا كما ذكر ، (١)

٢ — موقوفه ﷺ من وفد بني تميم : في عام الوفود — بعد فتح مكة — قدم وفد بني تميم على النبي ﷺ ومعه خطيبهم عطار بن حاجب بن زرارة وشاعرهم الزبرقان بن بدر ، فلما خرج إليهم النبي قالوا : يا محمد جئناك لنفاخرك . . فأذن لشاعرنا وخطيبنا ، فأذن لهم الرسول ولما انتهى خطيبهم أمر ثابت بن قيس الأنصاري فرد عليه ، ثم أذن لشاعرهم الذي قال في قصيدته :

نحن للكرام فلاحى يعادلنا

منا الملوك وفيينا يقسم الربع

وكم قسرنا من الأحياء كلهم

عند النهاب وفضل العز يتبع

إنا أبينا ، ولم يأت لنا أحد

وأنا كذلك عند الفخر ترتفع

(١) قضايا الشعر في النقد العربي : د . ابراهيم عبد الرحمن ص ٢٨٨

وحين بدأ شاعر بني تميم يمشد ، بعث رسول الله إلى حسان - ولم
يمكن بالجلوس - فخصرو سبع قول الزبرقان فلما قال رسول الله دقم يا حسان
فأجب الرجل فيها قال ، ونف فار تجل على نفس الوزن والروي :

إن النوائب من فخر وإخوتهم

ق-د بينوا سنة للناس تتبع

يرضى بها كل من كانت سريره

تقوى الإله ، بالأمر الذي شرعوا

قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم

أو حاولوا النفع في أشياعهم فعموا

إن كان في الناس سباقون بمدهم

فكل سبق لأدنى سبقهم تتبع

واستمر إلى نهاية القصيدة ، ولما فرغ حسان قال رئيس الوفد
- الأفرع بن حابس - : وأبي ، إن هذا الرجل - يعني رسول الله - مؤتي
له بخطيبه أخطب من خطيبنا ، وأشاعره أشعر من شاعرنا ، ولأصواتهم
أعلى من أصواتنا ، ولم ينفض المجلس إلا بدخولهم في الإسلام ولصديقتهم
الرسول ﷺ ، (١)

(١) دراسات في أدب ونصوص العصر الإسلامي ص ١٦٠/١٦٤

(١٣) دحين دخل مكة معتمراً (عمرة القضاء ٥٧) قدم بين يديه عبد الله بن رواحة ، فأخذ بخطام نافته مرتجذاً بأبيات منها ، (١) :

خلوا بني الكفار عن سبيله

خلوا فكل الخير مع رسوله

يا رب إني مؤمن بقبيلة

أعرف حق الله في قبوله

خلاصة موقف السنة النبوية : لو تأملنا الأحاديث السابقة بالتجاهلها

لثلاثة ، واستقرأنا مواقف الرسول — صلوات ربه عليه — فسوف نخرج بمدة نتائج ، توضح وتدعم ما عرفناه قبلاً حين تأملنا آيات الله البيّنات حول الشعر :

(١) موقف السنة يتسق مع موقف القرآن الكريم ، فهي تسكره من الشعر ما تضمن هجاء الرسول وحرباً على الإسلام ونيلاً من المسلمين ، وتسكره من الشعراء من حاد عن طريق الحق وخالف مبادئ الإسلام وتسكره للخلق القويم .

(٢) أحاديث النهي والكراهة لا تخرج عن ثلاثة : أولها بعدة روايات ومنها رواية أم المؤمنين عائشة وهي تنص على كراهة الشعر الذي هجا الرسول ﷺ .

وثانيها : يلعن من تطاول على الرسول وهجاه .

(١) الأدب في عصر النبوة والراشدين ص ٢٢٥

وثالثها : ينهى عن رواية قصيدتين تحويان تمجيذا للكفار ،
ووعيدا للمسلمين ، وهجومًا على الإسلام .

(٣) مواقف الرسول — عليه السلام — المناهضة للشعر أو المهاجمة
للشعراء ، لا تخرج عن التصدى لمن حارب الله ورسوله والمؤمنين .

(٤) أدرك الرسول بفطرته السليمة ، وحكمته البالغة ، اعتزاز العرب
بالشعر ، وابداعهم فيه وتمسكهم به ، حتى ليوشك أن يكون غريزة
فيهم — كحذنين الإبل — والرسول عربي ، يتذوق الشعر ويدرك تأثيره
في النفوس ، فليس من المقبول منطقياً أن يقال إنه — صلوات الله عليه —
قد حاربه وأنهى عنه وجودنا الشعر من القصيد والرجز قد سمعه الرسول
ﷺ — واستحسنه ، وأمر به شعراء ،^(١) ولكن للتوقع أن يقوم
هذا الفن ويهذب .

(٥) التف حول الرسول الكريم جماعة كبيرة من الشعراء المؤمنين
بعضهم كانت له صحبة ورواية ، فهم من حفظة الحديث النبوي ورواته ،
وبعضهم شرف بالصحبة وحدها . ومن الأولين ، الصحابة الأجلاء رواة
الحديث (٢) حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة ،
وعدي بن حاتم الطائي ، وعباس بن مرداس السلمى ، وأبو سفيان
بن الحارث بن عبد المطلب .. وغيرهم .

(١) البيان والتبيين ، ج ١ ص ١٥٣

(٢) راجع : دراسات في أدب ونصوص المعصر الإسلامى ص ٤٣/٤٤

وممن لهم شرف الصحبة دون الرواية : أحمد بن زهير ، ولبيد بن ربيعة ، وضرار بن الخطاب ، وابن الزبير . . وغيرهم : فكيف يفسح الرسول في مجلسه للشعراء ويسمح بالرواية عنه ، إن كان يكره الشعر أو يعرض عن الشعراء ؟

(٦) من الأحاديث الواردة عن «عنترة وامرئ القيس وأمية وطرفة» ثم من المواقف العديدة للرسول المصطفى مع شعراء آخرين يتضح جلياً أن الرسول لم يكن يرفض الشعر بعمامة ، ويعرض عن الشعراء أجمعين ، فقد رأيناه يقبل علي ما حسن ، ووافق الحق من الأشعار ، ولم يتضمن ما ينافي روح الإسلام وتعاليمه وآدابه ، واشتمل على العظة والعبرة والتذكير والحض على الفضائل وغير ذلك مما يدخل تحت قوله — **الْحَقُّ** — : إن من الشعر لحكمة (١) .

(٧) وما دام للشعر تأثيره وقوته ، فلا ريب أن الحكمة النبوية رأت اتخاذها سلاحاً للدفاع عن الدين ومناهضة الشرك ، خاصة وقد بدأ الشعراء الكفار بإطلاق سهام ألسنتهم واختار الرسول حسان بن ثابت وكتب بن مالك وعبد الله بن رواحة من الأنصار ليردوا على شعراء قريش ، فكان اختياره موفقاً لسببين :

الأول أن شعراء المدينة أقدر على قول الشعر من شعراء مكة ، والثاني أن شعر الأنصار يعد عهداً وموثقاً منهم للرسول (٢) .

(١) الأدب في عصر النبوة والراشدين ص ٢٢٧

(٢) تاريخ الشعر العربي : د . عبد العزيز السكفراوي ج ١ ص ٣١

(٨) ولم تقتصر نظرة الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - إلى الشعر على اعتباره فناً من الفنون يستحسن الحسن منه، ويستهجى القبيح، بل كان عليه السلام يرغب فيه بالحث على روايته واستنشاده، ويسمع لأصحابه في مجالسه، ويبدى آراء نقدية صائبة فيما يسمع، ويثيب على ما يمجبه، ويورد من أخطاء، ولو رجسنا إلى موقفه مع النابغة الجعدي، وليبيد، وكعب بن زهير، ومع السدوسي، ثم مع رواة شعر قيس بن الخطيم، فسوف نجد يرحب ويهيب بكل شعر تضمن الدعوة إلى خلق كريم، أو أصدر حكماً صائباً على فعل وسلوك، وإن كان الرسول يحسه المرهف، وحكمته السديدة، كان يمرض عن ذلك الشعر الذي يشيد بقم جاهلية، أو يخوض في الأعراض، أو يوقظ كامن الفتن والفتنة، أو يتباهى بروح الخيلاء والفخر بالأحساب والأنساب.

ولو كان الرسول يكره الشعر، أو لا يعرفه حق المعرفة، ما كان ليهتم بتلك المجالس الأدبية لروايته وإنشاده، ويسمع لشعرائه بالرد على شعراء الوفود أو شعراء قرين.

وما كان يرى فيه سلاحاً مكملاً لأسلحة القتال، وما كان ليبدى تلك الآراء الصائبة، ويظهر ذلك الإعجاب الصادق، ولا كان يستهيب لمن اتخذ الشعر وسيلة للاعتذار وطلب العفو، بل الاعتداء من الأسر.

فالرسول إذن - مهتدياً بالقرآن - لا يرفض الشعر جملة ولا يندحى الشعراء جميعاً، إنما يقبل ما وافق الحق والدين.

ثالثا : موقف الصحابة والراشدين

أظن أن موقف الإسلام من الشعر يزداد وضوحا واحكاما حين نتعرف على آراء ومواقف صحابة رسول الله - ﷺ - وخلفائه الراشدين ، فهم متبعون لسنة ، مسترشدون بهديه عليه السلام ، ورأى الجماعة من الصحابة والخلفاء وأوائل التابعين ، يعتبر مصدرا ثالثا للتشريع بعد القرآن والسنة .

يطالعنا في البداية قول أنس بن مالك - رضى الله عنه - « قدم علينا رسول الله ﷺ - وما في الأنصار بيت إلا وهو يقول الشعر ، قيل له : وأنت أبا حمزة ؟ قال : وأنا ، (١) »

وجاء في البيان والتبيين : « وسامة أصحاب رسول الله ﷺ ، قد قالوا شعرا قليلا أو كثيرا ، سمعوا واستنشدوا ، (٢) » .

وسئل الحسن البصري : أكان أصحاب رسول الله ﷺ يمزحون ؟ قال نعم ، ويتقارضون القريض ، وهو الشعر ، (٣) .

وروى عن أبي سلمة قوله : « لم يكن أصحاب رسول الله ﷺ متحزقين ولا متماوتين ؛ كانوا يتناشدون الأشعار ، ويدكرون أحص جاهليتهم ، فإذا أريد أحد منهم على شيء من دينه ، دارت جماليق عينيه كأنه مهنون ، (٤) »

الخليفة الاول : أبو بكر الصديق كان رضى الله عنه يستنشد الشعر

(١) العقد الفريد : ج ٣ ص ١٠٣ (٢) البيان والتبيين ج ١ ص ١٥٣

(٣) الأدب في عصر النبوة والراشدين ص ٢٩٠

(٤) المرجع السابق ص ٢٩٠

ويتذوقه ، ويبدى فيه آراء صائبة ، ويستشهد به في خطابه . كذلك فقد خاض حروب الردة دفاعا عن الإسلام ، واستنابة للمرتدين حتى يفيثوا إلى أمر الله ، فكانت تلك الحروب ذات تأثير على نهضة الشعر الإسلامى حيث واكب اللسان معركة السنان ، وانطلقت سهام الكلمات لتصيب المرتدين فى الصميم .

ومن آرائه التى تدل على دراية بالشعر قوله عن النابغة « هو أحسنهم شعرا وأعذبهم بحرا وأبعدهم قعرا » (١)

وحدث أن جاءه مال من البحرين فقام بتوزيعه على المسلمين بالتساوى وغضب الأنصار لذلك ؛ فقد كانوا يتطاعون إلى أن يزيد عطاءهم ، لما لهم من سابقة فى مناصرة الرسول ومؤاخذة المهاجرين ، شغلب فيهم الصديق ، وذكر فضلهم وأثنى عليهم ، متمثلا بأبيات طفيل الغنوى التى يقول فيها : (٢)

جزى الله عنا جعفرا حين أذلت

بننا نعلمنا فى الواطئين فزلت

(١) دراسات فى أدب ونصوص الشعر الإسلامى ص ٤١

(٢) الأبيات من كتاب الأدب فى عصر النبوة والراشدين ص ١٨٢ ، وطفيل شاعر جاهلى مات قبل الإسلام بقليل وكان حكيما ثريا فقام بالصالح بين قبيلته وقبائل أخرى متمحلا بالديار .

أبوا أن يملونا ولو أن أمنا
 التلقى الذى يلقون منا ، بللت
 هموا أسكنونا فى ظلال بيوتهم
 ظلال بيوت أدفأت وأظلت

وقال سعيد بن المسيب : كان أبو بكر شاعرا وعمرو شاعرا وعلى
 الشعر الثلاثة ، (١) وهو يقصد أن كل واحد منهم لا بد قد نظم بضعة
 أبيات فى مناسبات مختلفة .

الخليفة الثانى : الفاروق عمر : أما الخليفة العادل فله مع
 الشعر والشعراء مواقف عديدة مشهورة ، وله فيه وفيهم أقوال حكمية
 مأثورة ، كان يسأل وفود القبائل عن شعرائهم ، ويستنشدهم ، ويبدى
 آراء فيما يسمع ، وكثيرا ما كتب لولائه على الأوصار يسألهم عن الشعراء
 وما نظموه من جديد الشعر ، ويروى أنه ربما سهر الليالى يصغى إلى
 الشعر حتى إذا سحان وقت الفجر طلب تلاوة القرآن .

آراؤه فى الشعراء : كان يفضل زهير بن أبى سلمى ، محملا تفضيله
 بما يمكن تذوقه للشعر ، وعلمه بجمعه وما نه ، يقول : كان لا يعاظم فى
 الكلام ، وكان يتجنب وحشى الشعر ، ولم يمدح أحدا إلا بما

(١) المقام للفريد ج ٣ ص ١٠٣

فيه . ، (١) وربما حكمت الجملة الأخيرة حرصه على آداب الإسلام
الذى يدعو إلى القول الصادق ، وينهى عن الفساق والمراعاة .

وقال لوفد غطفان حين سمع قول النابغة الذبياني :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة

وليس وراء الله - للره - مذهب

قال : د هو أشهر شعرائكم ، (٢)

ولأن زهيراً اشتهر بمدح هوم بن سنان ، فقد طلب الماروق من
أحد أولاد هوم ذات مرة : أنشدني بعض ما قال فيكم زهير . فأشده .
فقال : لقد كان يقول فيكم فيحسن ، قال : يا أمير المؤمنين ، إنما كنا
نعطيه فنجزل ، فقال عمر - رضى الله عنه : ذهب ما أعطيتكموه وبقي
ما أعطاكم ، (٣)

وقال رضى الله عنه لابن عباس يوماً : أنشدني لشاعر الشعراء
الذى لم يعاظم بين القوافي ، ولم يتبع وحشى الكلام .

قال : من هو يا أمير المؤمنين ؟ قل : زهير ، فلم يزل ينشده إلى
أن برق الصبح » (٤)

(١) العصر الجاهلى : د . شوقي ضيف ص ٢٢٦

(٢) الشعر والشعراء ص ٧٣

(٣) المرجع السابق ص ٧٣

أقواله في الشعر : قال لابن له : يا بني : انتسب نفسك نعل
رحلك ، واحفظ بحسن الشعر يحسن أدبك ، فإن من لا يعرف نسبه لم
يصل رحمه ، ومن لم يحفظ بحسن الشعر لم يؤد حقاً ، ولم يقترف
أدباً ، (١)

ومن أقواله : الشعر جذل من كلام العرب ، يسكن به الغيظ
وتطفأ به الشائرة ، ويبلغ له القوم ناديم ، ويعطى به السائل ، (٢) ،
وجاء في البيان والنبين قوله : من خير صفات العرب : الآبيات
يقدمها الرجل بين يدي حاجته ، يستنزل بها الكريم ، ويستعطف بها
الليث ، (٣)

وقال أيضاً : روى من الشعر أصفه ، ومن الحديث أحسنه ومن
النسب ما تواصلون عليه وتعرفون به ، فرب رحم بمجولة قد عرفت
فوصات ، وبحسن الشعر تدل على مكارم الأخلاق ، وتنبئ عن
مساوئها ، (٤)

وكتب إلى أبي موسى الأشعري — وإليه على البصرة — يقول :

(١) الأدب في عصر النبوة والراشدين ص ٢٨٨

(٢) العقد الفريد ج ٣ ص ١٠٢

(٣) البيان والنبين ج ٢ ص ٢٨٨

(٤) دراسات في أدب ونهوض العصر الإسلامي ص ٤٩

دسر من قبلك بتمسك الشعر ، فإنه يدل على مبالى الاخلاق
وصواب الرأي ومعرفة الانساب » (١)

وروى الجاحظ ، قال كذب عمر بن الخطاب إلى ما كنى الامصار:
« أما بعد ، فدلتموا أولادكم القروسية ، ورووهم ما سار من المثل ،
وحسن من الشعر » (٢)

موافقة مع الشعراء : كان لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب مواقف
كثيرة مع عدد من الشعراء ، وتلك المواقف لها وجهها ، قد يتسرع
المفرضون فيأخذون بأحد الوجهين ، وياورن أهناق الكلمات كي يلمتوا
هؤلاء الخليفة المادل للشعر وللشعراء ، ويغمضون العين بإصرار وعدم
هن الوجه الآخر للموقف لأنه يهدم رأيهم ، ومن ذلك موقفه مع
الحطيئة بعد قصة ترويحها كذب الأدب القديمة والحديثه ، هجا الحطيئة
وجعلا فاضلا سيدا في قومه هو الزيرقان بن بدر بأبيات منها :

ما كان ذنب بغيض أن رأى رجلا
ذا حاجة ، عاش في مستوعر شاس
جاراً لقوم أطلوا هون منزله
وغادروه مقبلاً بين أرماس
ملوا قراه وهرته كلابهم
وجرحوه بأنياب وأضراس

(١) الأدب في عصر النبوة والراشدين ص ٢٨٩

(٢) المرجع السابق ص ٢٨٨

دع المسكرم ، لا ترسل لبغيتها
واقعد ، فأنت الطاعم الكاسي

فشكاه إلى أمير المؤمنين الذي قال بعد أن سمع الأبيات « ما أعلمه
هجاك، أما ترضى أن تكون طاعما كاسيا ؟ قال : إنه لا يكون في الهجاء
أشد من هذا » (١) .

وأرسل عمر، إلى حسان بن ثابت يسأله ، فقال دلم يهجه ، ولكن
صالح عليه ، لحبسه وقال « يا خبيث ، لا تشغلنا عن أعراض المسلمين » .
فاستعطفه الحبيشة وهو في الحبس بأبيات يذكر فيها أولاده الصغار :

ماذا تقول لأفراخ بنى مرخ
زغب الحواصل ، لا ماء ولا شجر

ألقب كسبهم في قعر مظلمة
فأفقر عليك سلام الله يا عمر
أنت الأمين الذي من بعد صاحبه
ألقب إليه مقاليد النبی البشر

(١) المستوعر : مكان صعب غليظ ، الشأس : الارتفاع الغليظ
اللون : من الهوان ، الأرماس : القبور ، هراته : نبعثته ونهشته ،
(الشعر والشعراء ص ٣٠٢) .

لم يؤثروك بها ، إذ قدموك لها
لكن لأنفسهم كانت بها الإثر

فقدمت علينا الخليفة وأطافه آخذاً عليه عهداً بالكف عن الهجاء ،
وأنشأ من أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم ، ولعل ذلك يشهد
الحطية بقوله :

وأخذت أطراف الكلام فلم تدع
شتماً يضر ولا مديحاً ينفج
وحيتى عرض اللئيم فلم يخف
ذمى وأصبح آمناً لا يفرع

ومهما يكن من شيء فالقد سحروكم الحطية هذه المحاكاة العلفية
الاعادلة ، ونال ذلك المقاب المستحق على هجائه للزبرقان ليسكون عبرة
له ، ورادعاً له عن التعرض لأعراض الناس ، وأخذت عليه الموائيق
ألا يعود ، وقطع عليه عمر معاذير الفقر بمنحه ثلاثة آلاف درهم ،
لأن صحت رواية ذلك ، (١) .

موقفه مع النعمان بن عدي : كان النعمان والياً على ميسان
في البصرة ، ونظم أبياتاً يقول فيها : (٢)

- (١) الحطية : د . درويش الجفدي ص ٩٣
(٢) نحو أدب إسلامي معاصر ص ١١٧

ألا هل أتى الحنفاء أن حليها
 بميسان ، يسقى في زجاج وحفم (١)
 إذا شئت غنتي دهاقين (٢) قرية
 ورقاصة قهـزـو على كل منهم
 فإن كنت ندماني فبالأسكر استقي
 ولا تسقى بالاصفر المتشلم
 لعل أمير المؤمنين يسوؤه
 تنادى في الجوسق المنهدم

فلما بلغ ذلك الخليفة عمر قال : « إني والله لاني ليسوؤني ذلك »
 ومن لقيه فليخبره أني قد عزلته ، وكتب إليه بعزله ، فلما قدم عليه
 قال : « والله يا أمير المؤمنين ، ما شربتها قط ، وما ذاك الشعر إلا
 شيء طفق على لساني ، فقال عمر : أظن ذلك ، وليكن والله لا تفعل لي
 هملا أبدا وقد قلت ما قلت ، وواضح أن عقاب أمير المؤمنين كان
 بسبب جهر النعمان بالمحرمات حتى ولو لم يرتكبها ، ثم تطاوله على
 الخليفة بما يسوؤه ، وهو - النعمان - كان واليا ، أي قائدا ومثلا لعامة
 الأمة ، فلو ترك في منصبه بعد زلته لشجع غيره على الفعل بعد القول ،
 وما كان عمر ليتراخى في الحق .

(١) الحفم : الجرة الخضراء .

(٢) دهاقين : جمع دهقان وهو القوي صاحب السلطة والمال
 والخبرة ، الجوسق : كل بنيان عال شامخ .

موقفه مع حسان بن ثابت : روى أن حسان وقف يشهد شعراً

في مسجد الرسول - ﷺ - أيام عمر ، فلما سمعه وأخذ بأذنه وقال :
أرغاء كرخاء البعير ١٩ فرد عليه حسان بقوله : دعنا عنك يا عمر ،
فوالله لنعلم أنى كنت أشهد في هذا المسجد من هو خير منك ، فلا يخير
على ، فيقول له عمر : صدقت ، ... وتنتهى القصة بقول عمر للمسلمين
من الانصار : لاني كنت نهيتكم أن تذكروا شيئاً مما كان بين المسلمين
والشركيين دفءاً للخصا منكم ، فأما إذا أبوا فأنشدوه واحفظوه ، (١)

موقفه مع لبيد : يعد لبيد بن ربيعة من كبار شعراء الجاهلية

وأدرك الإسلام ، فقدم على رسول الله في وفد من بني كلاب ، وقد
حسن إسلامه وتخلّى عن كثير من الشعر الذي يأباه الدين ، ولذا قلّ
شعره ، ويقال إن عمر بن الخطاب استنشد به بعض ما قاله في الإسلام ،
فقرأ سورة البقرة وقال : ما كنت لأقول شعراً بعد إذ علمني الله
سورة البقرة وآل عمران ، فزاده عمر في عطائه خمسمائة درهم ، (٢)

وقد يظن أن الخليفة زاد عطائه لأنه ترك الشعر ، فكأنه يحض
غيره على ذلك ، لكن الحقيقة أن عمر بن الخطاب قد زاد عطاء لبيد
لتقواه وحفظه للقرآن وأيسر ترك الشعر ولما زاد في عطائه بقية
المسلمين الذين لا ينظمون شعراً .

(١) دراسات في أدب ونصوص العصر الإسلامي : ص ٤٩

(٢) المرجع السابق : ص ٥٠

تأثره بالشعر : « سئل مالك بن أنس : من أين شاطر عمر ابن الخطاب عماله ؟ فقال : أموال كثيرة ظهرت عليهم ، وأن شاعراً كتب إليه يقول :

مخرج إذا حجوا ونفرو إذا غروا
فأنى لهم وفر ، ولسنا بنى وفر
إذا التاجر الهندى جاء بفارة
من المسك ، راحت فى مفارقة
فدونك مال الله حيث وجدته
سيرضون — إن شاطرتهم — منك بالشر

قال : فشاطرهم عمر أمراهم ، (١) .

ويروى أن المنخل السعدى جزع جزعاً شديداً حين هاجر ابنه شيبان لحرب الفرس مع سعد بن أبي وقاص ، وكان قد أسنّ وضعف ، فافتقد ابنه ، فلم يملك الصبر عنه ، وذهب إلى عمر فأنشده (بياناً) يقول فيها :

إذا قال صحبى يارب يسع ألا ترى
أرى الشخص كالأشخصين وهو قريب

(١) العقد الفريد : ج ٣ ص ١٠٢

ويخبرني شيبان أن لن يعقني

تلقى إذا فارقتني وتحوب (١)

فرق له عمر ، وكتب إلى سعد يأمره بورد شيبان إلى أبيه ولم يزل عنده
حتى مات وقد فزع إليه أيضا أمية بن حرثان بن الأسكر حين
هاجر ابنه كلاب إلى حرب الفرس ، وكان مما أنشده فيه :

لمن شيبخان قد نشدا كلابا

كتاب الله إن حفظ الكتابا ؟

إذا هتفت حمالة بطن وج

على هيئاتها ، ذكرا كلابا

تركك أبالك مرعشة يداه

وأملك ما تسبيغ لها شراها

فأمر بإشخاصه إليه . ومن فزع إلى عمر أيضا في ذلك أبو خراش
الهلذلي حين هاجر ابنه مع المجاهدين إلى الشام ، وقد أنشده شعرا
مؤثرا ، فأمر بورده عليه وأن لا يغزو من له أب هرم إلا بعد أن
يأذن له راضيا بهجرته (٢) وكل ذلك يدل على تقدير الخليفة العادل

(١) تحوب : تخطىء وتأنم

(٢) العصر الإسلامي : د . شوقي ضيف ٥٦ ، ٥٧

للشعر والشعراء وتأثره بالآيات برسلمها الرجل بين يدي حاجته - كما
هو هو .

أما ما يثار من شبهات حول موقفه من الخطيئة ثم من لبيد
وما يقال من أنه غضب على أبي موسى الأشعري ولومه لأنه كافأ الخطيئة
لمدحه إياه ، وأدعاء أنه أنقص خمسين درهم من عطاء الأغلب المعجل
أقوله حين سئل عن شعره (١) :

لقد سألت هينا موجردا أروجا تريد أم قصيدا ؟

فهو نوع من التعامل أو متابعة لآراء فيردقيقة وروايات ناقصة ،
وقد عرفنا حقيقة موقفه مع الخطيئة ، وكيفي أنه أخرجه من السجن بعد
آياته عن أولاده ، وأعطاه ما يغنيه عن السؤال بالمدح والاسترقاد
بالهجماء ، كما فهمنا سر تصرفه مع لبيد الذي عرف عنه الكرم والإطعام
الناس وقت الصبا ، وهي ريح شديدة البرودة ، تمنع الناس من السعي
لحمايشها . ولومه لأبي موسى إنما كان حرصا على مال المسلمين من أن
يبدد طمعا في الشناء والمديح .

ولإنقاص عطاء الأغلب لا يرجع قطعا إلى كتابة الشعر ، فلا بد أن
بقية القصة تعطى تفسيراً للأمر ، والشعراء في عهد حمز - رضى الله عنه -
كانوا كثيرين ولم نسمع عن إنقاص عطاء أحد آخر غير الأغلب .

(١) تاريخ الشعر العربي ج ١ ص ٥٨

عثمان بن عفان : تتفاوت آراء الدارسين في الخليفة الثالث تفاوتاً

كبيراً ، فبينما نجد الدكتور عبد العزيز الكفراوى يقول عنه بعد اتهام عمر بن الخطاب بـ كراهية الشعر : « ولم يكن عثمان وعلى من بعده أقل منه سخفاً على الشعراء وكراهية للشعر ، فقد ذكر الشياخ أن خوفه من عثمان وتشكيكه بأمثاله هو الذى كان يحميه من أن يمزق جلود أعدائه وذلك حيث يقول (١) الربيع بن عبيد الله السلمى :
لولا ابن عفان ، والامسلطان مرتقب

أوردت لجان من الأبناء جملوداً

على حين يقول الدكتور درويش الجندى : « وما يكاد عهد عمر يفتنى بسياسة الحازمة الصارمة ، ويأتى عهد عثمان بسياسة اللينة اليسيرة حتى نرى الخطيئة يتنفس الصعداء ، (٢) ثم يحكى عن مدح الخطيئة الوليد بن عتبة - والى عثمان على الكوفة - وكان ضيفاً في دينه ، يشرب الخمر ، ويلهو مع أصحابه بالغناء حتى الصباح ويذهب للصلاة سكراناً ، فلما أقيم عليه حد الشراب ، دافع الخطيئة عنه ومدحه (٣) .
ولكن شواهد أخرى ، وكذا منطق الأمور ، تنهى عن أن الخليفة الثالث قد سار على نهج سابقيه ، فترك الشعراء ماداموا ملتزمين بـ تعاليم الإسلام ، وأعرض لهم حين تهاجموا على القيم ، واعتدوا

(١) تاريخ الشعر العربى : ص ٥٨

(٢) الخطيئة : ص ٩٧

(٣) نفس المرجع ص ٩٨

بأسننهم على الحرمات . وما قاله الشماخ يدل على أن عثمان بن عفان
 - رضى الله عنه - قد اشتد على المهجائين وحاربهم ، حفاظا على
 القيم الأخلاقية وحماية للأعراس ، ويؤكد ذلك ما روى عن قصته مع
 ضاريه بن حارث البرجمي ، وهو شاعر من بني غالب بن حنظلة ،
 وكان قد هجا قوماً هجاء سوء ونجس ، فشكواه إلى الخليفة دعثان ،
 الذى حبسه إلى أن مات (١)

على بن أبى طالب : أما الخليفة الرابع - ابن عم رسول الله والذى
 شهد له سعيد بن المسيب أنه أشعر من أبى بكر وعمر - رضى الله
 عنهما - فقد حفظت كتب السيرة وكتب الأدب شيئاً غير يسير من
 شعره ، فيقال إنه كان إذا هم بالمبارزة أنشد من نظمه : (٢)

أى يومى من المرات أفرش
 يوم لا يُقدر ، أم يوم مُقدر ؟
 يوم لا يُقدر لا أرهبه
 ومن المقدور لا يفنى المذر
 وما قاله من شعره أيضاً يوم صفين :

(١) الشعر والشعراء : ص ٢١٨

(٢) العقد الفريد ج ٢ ص ١٠٠

أمن راية سوداء يخفق ظلمها
إذا قيل قتلتما حميين ، تقبدا
فيوردها في الصف حتى يردوها
حياض المنيايا تقطر السم والدم
جوى الله عنى والجراى بكفه
ربيمة سخيرا ، ما أعف وأكرما

وكان المسلمون يعرفون في على شاعريته ، بدليل أنهم حين اشتد
هجماء شعراء الشراك للنبي وصحبه ، ذهبوا إلى وقالوا له : داهج عنا
القوم الذين يهجوننا ، فقال : د لمن عليا ليس عهدى ما يراى في ذلك ، (١)
وهو لا يقصد بالطبع ضاف المقدرة الفنية وما سكة الشعر ، ولكنه
تخرج من قول الهجاء - خاصة في قرينى وهم قومه وقوم رسول الله -
أو ربما كان لا يقول شعر الهجاء عامة ، فليس كل شاعر قادراً على
جميع فنون الشعر .

وكان يفضل من الشعراء امرأ القيس ويقول وكان أحسنهم نادرة
وأسبغهم بادرة ، (٢) .
وقد استعان بالشعراء في معاركه مع بنى أمية لإثارة الحاس
وتحريك الحميم .

ويرى أن أحزاباً شكاً إليه فقره فأمر غلامه - قنبر - أن يعطيه

(١) دراسات في أدب ونصوص العصر الإسلامى : ص ٤٠ ، ٤١

(٢) دراسات في أدب ونصوص العصر الإسلامى : ص ٤٠ ، ٤١

حالة ، فمدحه بقوله : (١)

كسوتني حالة تبلى محاسنها
فسوف أكسوك من حسن السفا حملا
إن الثناء ليحيى ذكر صاحبه
كالغيث يحيى يدها السهل والجللا
لا تزهد الدهر في عرف هدأت به
فشكل عبود سيحزنى بالذى فملا

فقال على : ديا قنبر : اعطه خمسين ديفارا ، ثم قال له : أما الحلة فليسأ لتك
وأما الهدايا فلا أدبك ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : أنزلوا الناس
منازلهم ، ووضح من هذه الفضة أن عليا كرم الله وجهه عرفه للرجل
قدره حين قال الشعر فبجله وأعطاه ما يليق بشاعريته . لكن ذلك
لا يمنع أن يوجه من يحتاج للتوجه إلى التأديب بأدب القرآن
الكريم ، فبروى أنه سمع جابر بن سمير التميمي ، يتعجل بقول
والأسود بن يعفر النهشلي ، وهما يمرآن على مدائن كسرى :

جرت الرياح على محل ديارهم

فكأنما كانوا على ميعاد

ولقد غنوا فيها بانعم عيشة

في ظل ملك ثابت الأوتاد

فإذا النعميم وكل ما يطمى به

يوماً ، يصير إلى بكى ونفاد

فقال على : فلم لم تقل كما قال الله عز وجل ﴿ كم تركوا من جنات

(١) الأدب في عصر النبوة والراشدين : ص ٢٨٩

وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها
قوماً آخرين ﴿١٥﴾ .

وبعد . . . لأن ذلك العرض لمواقف الراشدين وأقوالهم فيما يخص
الشعر والشعراء يثبت أنهم ساروا على نهج الرسول الكريم وهدى
من القرآن ، فلم يرفضوا الشعر تماماً ولم يقبلوه على علته ، ولا هم
عادوا الشعراء جهيماً ، ولا تركوهم وأهواءهم المتقلبة ، إنما كان الموقف
العادل ترحيباً بالطيب ونهيّاً عن الخبيث ، ثواباً للمحسن وعقاباً
للمسيء ، كان حشاً على الخيّر الصالح وزجراً عن الشرير الطالح ، وذلك
ما يتفق مع آيات القرآن وأحاديث الرسول وموافقه صلوات الله
وسلامه عليه .

خلاصة موقف الإسلام من الشعر والشعراء : لا ريب أننا بعد
هذا العرض المسهب لموقف القرآن الكريم والسنة النبوية ، ثم الخلفاء
الراشدين ، نستطيع أن نقول مطمئنين : إن الإسلام لم يعارض الشعر
ولم يذم الشعراء ، ولأنه ليس من المستعاض عقلاً ادعاء أن الرسول ﷺ
كره الشعر وأعرض عن الشعراء ، فلا يمكن لدهوة عالمية ترسم منهاجاً
جديداً للحياة الإنسانية كلها ، لا يمكن لهذه الدعوة أن تسقط الشعر من

(١) الآيات من سورة الدخان ٢٥ ، و ٢٦ . والمقصود من توجيه
الخليفة الأيأسى على ضياع ملك الفرس - وهم كافرون - لأن الله أورثه
لن هو خير منهم - للمسلمين .

حسابها ، سواء كان عمالا للإبداع الفنى أو وسيلة للدعوة ، أو سلاحا للجهاد ، وقدمى بنا كيف حدث الرسول المهبط فى شعراء المسلمين ، ودعاهم إلى جهاد القول وسهام الكلام وسيف اللسان ، وذلك بعد أن فجع شعراء مكة المشركين تلك الجبهة الجديدة لتواكب جبهة الرماح والسيوف .

أما ما ورد من تهديد القرآن لبعض الشعراء ونهى الرسول عن قتل من الشعر أو ضيقه بقبائل من الشعراء ، وما عرف - تاريخيا - من مطاردة الخلفاء وكعمرو بن الخطاب ، أو عثمان بن عفان ، رضى الله عنهما للحطبة والنجاشى وضارب ، فإنما كان لما تناولوه هؤلاء من أفكار ومعارى تنافى الحقائق القويم ، كما تؤذى الفطرة السليمة ، وتناقض مبادئ الإسلام ، وبفضل هذا التوجيه القرآنى والنبوى تخلص الشعر العربى من شوائب الملقى والنفاق فى المديح والكذب ، ومن أدران الهجاء القبيح ونيل الأعراض ، ومن الهيام فى أودية الزهو والخيلاء بالفخر المتعالى ، ومن خدش الحياء فى النزل الفاسد ، ومن أذى الحقائق بوصف الخمر ولعب الميسر وجماعى اللهو والمجون ، لأنه التوجيه للشعر وليس كبحه ، والقضاء عليه ، وهو التمهيد للشعراء لا خنقهم وتسكينهم .

ويمكن أن نوجز موقف الإسلام جملة من الشعر والشعراء فى النقاط التالية :

(١) ليس فى القرآن الكريم تعريم قاطع صريح لنظام الشعر ،

وليس فيه تنديد به أو تحقيق له إلا حين يتنكب طريق الهدى ويحيد عن الخلق والدين .

(٢) كذلك لا يعادى القرآن الشعراء ولا يذممهم أو يهدمهم إلا إذا انصرفوا عن الحق وأساؤا للغير .

(٣) تركيز القرآن على نفي صفة الشاعرية عن الرسول وصفة للشعر عن القرآن هدفه تنزيه الرسول - ﷺ - عن أن يأتي بما لم يوحى إليه وينزل عليه ، يقول جل شأنه في سورة الحاقة (ولو تقول علينا بعض الأقاويل ، لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين) ويقول سبحانه في سورة الفجم (إن هو إلا وحي يوحى) وكذلك تنزيه القرآن عن أن يكون كلام بشر ، وإنما (تنزيل من رب العالمين) (١) .

(٤) تتفق السنة المطهرة مع القرآن الكريم فهي ترحب بالشعر وتفسح للشعراء مكانا ، إذا انبعث من مبادئ الدين والخلق ، وأبعد عما يغضب الله ورسوله .

(٥) الأحاديث الواردة في النهي عن بعض الشعر، ولعمري وكذلك ذم بعض الشعراء ، حددت المنهية عنه والمكروه بأنه ما كان متضمنا لهجاء مقذع أو أذى للرسول والمسلمين أو صده عن سبيل الله .

(٦) سماع الرسول — صلوات ربه عليه — للشعر واستنشاده ، ودعائه لبعض الشعراء ولما بهم دليل واضح جلي على موقف السنة — وهي تفسر القرآن — موقف الرضى والفرحيب .

(١) الواقعة ، آية ٨٠

(٧) اتخذ الرسول للشعر سلاحاً جاء بعد أن بدأ شعراء قريش المعركة الكلامية ، ورموا الرسول والمسلمين بسهام القول المسموم ، فهي الضرورة التي تبيح مخطوئاً ، وحين فتحت مكة ، وانتهت المعارك الكلامية كف الشعراء المسلمون عن الهجاء ومنعه الرسول وشفاقته .

(٨) سار الخلفاء الراشدون — رضى الله عنهم — على نهج القرآن والسنة فاستمعوا للشعر واستأشدوه ، لكنهم حاربوا الشعراء الهجائيين وأخذوهم بالشدّة حتى يحافظوا على ميادى الإسلام ووحدّة المجتمع .

فالإسلام — ممثلاً في القرآن الكريم والسنة المشرفة وسلوك الخلفاء — هياً للشعر مكاناً ، ورحب به فمنا لإنسانياً مهنداً ، يعبر عن النفس والحياة ، ويدعو إلى الحق والخير والجمال ، كذلك فإن الإسلام شجّع الشعراء ، ودعاهم لأداء رسالتهم في سبيل الشريعة ، وحماية الأخلاق ، وبناء المجتمع ، لكن الإسلام أيضاً نهى عن تحويل الشعر إلى إيذاء للمسلم في عرضه ودينه وخلقه ، وطارد الشعراء إذا صاروا حرباً على الدين أو الأخلاق ، وحين يمزقون وحدة المجتمع .

رابعاً : حالة الشعر في عهد النبوة والراشدين.

يتفرج عن قضية الإسلام والشعر، قضية أخرى تار حو لها الخلاف
وتعارضت فيها الآراء ، وهي الحكم على الشعر في عصر النبوة
والراشدين : أكان خاملاً ضعيفاً ؟ أم قوياً نشيطاً ؟

وكما وجدت النفوس المريضة — مستشرقين وعرباً متفرنجين —
بجالاتهم الإسلام في موقفه من الشعر ، حين تفحص للاحداث
عن ظروفها ، وتبهر النصوص من موافقها ، كي 'تغسير' الحقائق ،
فكذلك تجد تلك النفوس بجالاتها لاثارة الغبار حول أضواء فترات
تاريخنا الإسلامي: عصر الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين رضوان الله
عليهم ، فتدعى موات الشعر وركوده ، وتوجز الحديث عنها كي
تغيم الرؤية .

لقد اعتدنا أن نقسم عصورنا الأدبية ، فندمج هذه الفترة
الباهرة ، مع فترة حكم الأمويين ، بحجة قصرها د وفكفي عادة في
مدارسنا بتدريس نص مقتضب لحيان بن ثابت ، ليمثل العصر النبوي ،
وآخر لكتب بن زهير ثم نمنح لنسب وعب أدبيا ما يمثل جزئيات التاريخ
والفرق السياسية الطارئة ، (١) وقد لا يستغرق ذلك من الدارسين أكثر
من صفحات قليلة ، مجاهدا اتهام باطل الإسلام بأنه خلق الشعر وضيق
على الشعراء ، ثم يفردون بقيمة الكتاب الضخم لعصر الأمويين في
تفصيل لا مزيد عليه .

(١) شعر عصر صدر الإسلام : د . محمد عادل الهاشمي ص ٥

والأصل أن نعتز بفترات الخصوبة والانحصار في تاريخنا ونسبب الحديث عنها ، عسى أن نخلق في النشء قـدوة ومثالا ، ونزيده عن قيمة وانضالا .

فكان الأولى استعراض نماذج من الشعر الإسلامي الذي واكب الدعوة مسجلا أحداثها ، متغنيا بانحصاراتها ، مناخا أحوالها ، وأن نشيد بدور الشعراء في هذه الفترة . على أن بعض الدارسين المعاصرين قد تدارك الموقف فخص عصر الفتوة والراشدين بكتيب مستقلة (١)

وحين نستطلع رأى مؤرخي الأدب — وهم كثير — حول شعر تلك الفترة فإننا نفاجأ بتعارض الآراء ، وتناقض النصوص ، حتى افوشك ألا نهتدي للحقيقة والصواب .

ويبدو أن القدماء كانوا ينظرون إلى الجوانب فيحكمون على كل منها منفردة . وجاء المحدثون فأخذوا عنهم تنمأ من النصوص تخدم آراءهم ، فن قال بعضهم الشعر آنذاك وجدما يؤيده في كلام ابن سلام والأصمعي وابن خلدون وابن قتيبة ، ومن قال بقوته ونهضته شعر — أيضا — على إثباتات من كلام هؤلاء .

بل سرت عدوى الفطرة الجزئية إلى بعض المحدثين ، فوجدناهم

(١) مثل الدكتور صلاح الدين الهادي : الأدب في عصر الفتوة والراشدين .

يذهبون من اليمين إلى اليسار بين صفحة وأخرى (١) .

ومن هنا رأيت الطريق الأمثل أن أعرض جميع الآراء وأناقشها رأياً رأياً ، ثم نتعرف على نماذج كافية - من شعر تلك الحقبة ، نماذج من كل الأغراض التي طرقتها الشعراء وقتذاك ، وفي مختلف البيئات العربية ، كي نصل في النهاية - من المناقشة والاستعراض النصي إلى أكثر الأقوال قرباً من الحقيقة ، وإنصافاً للإسلام وللشعر .

أولاً : حجج الفاتلين بضعف الشعر : تتذرع أدلة وحجج الفاتلين بضعف الشعر في عصر النبي الكريم وخلفائه الراشدين ، ولعلنا لا نبعد عن الصواب حين نبدأ بأقوى تلك الحجج في نظر أصحابها ، وأكثرها دوراً على الالفة ، حتى يمكن القول بإجماعهم عليها ، وهي الأدلة والحجج المتصلة بالإسلام في موقفه من الشعر .
وموجز تلك الحجج :

(١) الموقف العنيف الذي وقفه القرآن من الشعر .

(٢) محاربة الرسول والقرآن للشعر .

(٣) تعارض قيم الإسلام مع الشعر الجاهلي ، فقد أبطل أشياء وهذب طبائع ، فكان في ذلك ختماً للشعر .

(١) كتاب تاريخ الشعر العربي للدكتور عبد العزيز الكفرأوى

ص ٥٣ يذهب إلى إذكاء الدعوة الإسلامية للشعر ، وفي ص ٥٥ يرى أن الإسلام سارب الشعر وأحب أن يقتضى عليه .

(٤) انبهار العرب بالقرآن وانصرافهم عن الشعر .

وانبدأ في تفصيل ما أوجزنا : يطالعنا حول الحجة الأولى قول الأستاذ الدكتور عبد العزيز السكفراوي : « وإنما وقف القرآن من الشعراء هذا الموقف الصريح العنيف لأنهم صدوا عن سبيل الله ، وحاربوا رسوله ، وآذوه في نفسه وعرضه ، ومن يدرى . . لعل القرآن كان يرى في الشعر منافسا يشغل بعض الناس عن تمام الانصراف إليه ، فأحب أن يقضى عليه قضاء نهائيا . هذا هو الموقف العام للقرآن ثم جاءت التعاليم الدينية والروح الإسلامية بتفاصيل وتشريعات تكميل للشعر والشعراء ضربات أخرى غير مباشرة ، (١) .

ولست أدري : أيغني الأستاذ الباحث من هذا الكلام طمس الحق أم هو يحمله ؟ إن الفقرة الأولى لا تحتاج إلى رد ؛ إذ أن المدارس قد وقف عند قوله تعالى ﴿ لا تقربوا الصلاة . . ﴾ فهو لم بكل قراءة آية الشعراء حيث يقول المولى عز وجل ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات . . ﴾ وهل كان أمام القرآن إلا أن يقف هذا الموقف من حاربوا الله ورسوله ، وصدوا عن سبيله ؟ وهل يعاقب صاحب الجرم لأن كان غير شاعر ، ويغفر له إن كان شاعرا ؟ كيلا يتهم القرآن بمكرهة الشعر والقضاء عليه ؟

أما الفقرة الثانية التي تصور أن القرآن - لعله - رأى في الشعر

(١) تاريخ الشعر العربي ، ج ١ ، ص ٥٥

منافساً ، فهو القول الغريب الذي لم أصادفه عند دارس آخر ، فأى وجه المقارنة بين القرآن - كلام الله ووحيه - وبين الشعر - الذي مهما بلغ من جمال وكمال فإنه كلام بشر ناقص خطباء ؟ ثم أى وجه للمقارنة بين كتاب تشريع ودين للبشرية جمعاء ، حاضرا ومستقبلا ، وبين قصائد تعبر عن حالات نفسية وعاطفية ، في لحظات محدودة ، مهما تفاهت في قدرتها التعبيرية فإنها خاصة مؤقتة ؟

ثم أين ذهب القرآن بعد ذلك فقوى الشعر - حسب رأيه - في العصر الأموي ؟ ألم يكن باقيا يهدر الشعر والشعراء ؟ وأين ذهب تعاليم الشريعة ، هل انتهى الإسلام - قرآنا وتشريعا بعد عهد الراشدين ؟

وإذا كان الإسلام قد وجه ضربات غير مباشرة للشعر والشعراء ، فكيف نفسر ذلك الحكم الهائل - وسوف يشير إليه الاستاذ نفسه - فكيف نفسر ذلك الحكم من شعر الحواضر والبادى في جزيرة العرب في صدر الإسلام ، والذي يوحى كتب الأدب والتاريخ والسير والمغازي وكتب الصحابة ؟

وهناك رأى في هذا المجال يقول إن نفي القرآن لشاعرية النبي صلوات الله وسلامه عليه ، جعل الناس يظنون أن الشعر من أعراف الجاهلية وتعاليمها ، يحسن التجلي عنه مع بقيمة التقاليد الأخرى التي حاربها الإسلام .

وهي حجة نستطيعا موافق الرسول وأقواله في الشعر والشعراء ومماحه للشعر واستنشاده ، وإثباته عليه ، وطالبة من الشعراء المصاحين نظام الشعر الذي يناقون به عن الدعوة ، ويردون كيد شعراء المشرك ، فهل يفعل الرسول كل ذلك ويظن الناس أن الشعر تقليد جاهلي ؟ .

وقيل أيضا في هذا الشأن : إن أعدام الدين قد حاربوه بالشعر ، فلما انتصر الإسلام وعم نور الله ، كرهته العرب — أى الشعر — فتناسوه وامتنعوا عن روايته ، وذلك إن صدق فإنما يصدق على شعر المشركين الذى تعرض للرسول الكريم ولالدين ، ولكن ماذا عن الشعر الآخر ؟ .

وأضعف الشعر في رأى آخرين أنه كان قبيل الإسلام قد اتجه إلى الخوض في العقائد والقول في الأديان — وذلك يحدث للشعر إذا بلغ الشيخوخة — أى أنه قد هبط مستواه من ناحية ، وصار مخالفا للإسلام من ناحية أخرى .

وما قاله الشعر في العقائد والأديان فيه نظرات صائبة أقرها الرسول وأعجب بها ، مثل بعض أشعار أمية بن أبي الصلت ولبيد وزهير ، وفيه خرافات وأباطيل عامما الإسلام كغيرها من القيم الجاهلية المذمومة عنها ، وذلك لا يبطل الشعر جملة ، ومسألة مربوط المستوى سوف تتناش في موضع آخر عند الكلام عن انتهاء عصر الفحول كما قيل .

ثانيا : محاربة الرسول والقرآن للشعر : كان الشعر الجاهلي
 جهالا لإظهار العصبية القبلية والاعتداد بالأنساب والأحساب ، وقد
 حارب الإسلام ذلك ، فكان من الطبيعي ألا يشجع الرسول الشعر
 والشعراء — هكذا يرى الدكتور درويش الجندى ، ثم يضيف
 إشارة إلى قوله تعالى ﴿ والشعراء يتبعهم الغاؤون ﴾ . . .
 وأيضا ﴿ وما علمناه الشعر ﴾ . . . وإلى قول الرسول ﷺ «لأن يمتلىء
 جوف أحدكم . . . » ويعقب قائلا :

« فآزور جانب المسلمين عن قرص الشعر وروايته ، على علمهم
 بأن الدين لم يكرهه على إطلاقه ، وإنما كره منه ذلك النوع الذى يمزق
 الشمل ويشير دقائق القلوب » (١)

وأظننا قد ناقشنا موقف القرآن والسنة بما فيه السكافية ، والاستاذ
 الباحث نفسه يقول « إن الدين لم يكره الشعر على إطلاقه » فلماذا
 يوزر المسلمون إذن عن قرص الشعر وروايته ؟ على كل سوف نرى
 من خلال استعراض النظم الكبير المتنوع للشعر الإسلامى أنهم لم
 يتوقفوا عن العظم ، أما الرواية فيشبهها ذلك التراث الشعرى الهائل
 الذى نتداوله .

هلى أنما نسلم مع الدارس بأن الإسلام قد نهى عن الشعر الذى

(١) الخطيشة البدوى المحترف ص ٦٣

عزق الأواصر ، ويفتت وحدة المسلمين ، لكنه نوع من الشعر وليس كل الشعر .

ويرى الدكتور محمد عبد العزيز المواني ، أن الإسلام كان لا بد أن يعادى الشعر الجاهلي ، بوصفه تجسيدا للقيم الجاهلية التي ارتبط بها ارتباطا عضويا دقيقا ، وصورها تصويرا صادقا بكل عاسنها ومساوئها (١)

ولأن العرب كانوا يهيئون شعرهم وينظفون حياتهم شعرا ، أى أنهم لا يفصلون بين الشعر والحياة ، لذلك فإن الإسلام حين يسعى لتغيير حياة العرب وسلوكهم ، فيجب عليه أولا أن يحارب الشعر الجاهلي باعتباره حاربا للقيم والمثل التي تحكم هذه الحياة وتوجهها .

وقد يفهم من ذلك أن الإسلام منع تداول الشعر الجاهلي وقضى عليه قضاء تاما ، حتى تمكن من تثبيت قيمه الجديدة ، مكان تلك التي يحويها الشعر .

وهو ما لم يحدث قط ، بدليل ما بين أيدينا من تراث الشعر الجاهلي ، ونحن لا نختلف مع الأستاذ الباحث في أن الإسلام أتى بقيم تمارض قيم الجاهلية التي حوّاها الشعر ، خير أن وسيلة الإسلام لبث هذه القيم وتثبيتها لم تكن بهدم الشعر الجاهلي أو بحاربته والقضاء عليه ، بل كانت بالإفناع والمثل والقُدوة ، ولا ريب أن الإسلام عدّ

(١) قراءة في الأدب الإسلامي والأموي ص ١٢

الشعر الجاهل ميراثاً تاريخياً ، وسجلاً لعهد مضى ، نغيّره ولكن لا نمحوه ، نتخلّى عنه سلوكاً ومعايشة ، ولكن لا نتخلّى عنه تاريخياً وحضارة .

وحقيقة أن الإسلام طاردكمثاً من الشعر ومنع روايته ، حتى منسى وضائع ، ولكنه شعر المشركين الذين هجوا رسول الله ﷺ ، وتناولوا أعراض المسلمين وصعدوا عن سبيل الله ، وهو ما نظم في سنوات الحروب بين مكة والمدينة .

ويكفل الأستاذ الباحث رأيه « بل إن موقف الاسلام من الشعر مرتبط بموقفه من الحياة الجاهلية ، التي جاء للقضاء على كثير من قيمها فهو إذا حارب قيمة من هذه القيم ، فإنه بالضرورة يحارب الشعر الجاهل المجد لها » (١) ثم يعدد طائفة من تلك القيم التي حاربها الاسلام كشرب الخمر والغزل الفاحش والهجاء المقذع والتنايد بالآلقاب ، والمدح طلباً للعطاء وكل ذلك تجسد في كم هائل من الشعر منع الاسلام رواجه وانتشاره ، (٢)

أترى يقصد الأستاذ الباحث من محاربة الشعر المجد لهذه القيم ومنع رواجه وانتشاره ، هل يقصد محوه أو نسيانه أم يقصد ألا ينظم الشعراء المسلمون على نسقه وفي موضوعاته ؟

إن كان النقص الأول فهو ما لم يحدث ، لأن الشعر الجاهل باق

(٢) المرجع السابق ص ١٤

(١) المرجع السابق ص ١٤

أغلبه - رغم تهميده لتلك القيم والإشادة بها ، وإن كان يقصد ألا ينظم المسلمون مثل ذلك ، فهو ما كان لا بد أن يحدث تلقائيا ودون محاربة من الإسلام للشعر ، فالغيبى الجنزى الشامل الذى أحدثه الإسلام ، وتشر به النفوس عن اقتناع عقل و يقين قلب ، ذلك النغم ، صبح شهرهم بصيغته ، فأصبح ينبع ويصور هذه القيم الجديدة عفويا بلا إلزام ، اللهم إلا فى النادر حين لا يصل الافتناع إلى العقل أو لا يبلغ إيمان القلب مرتبة اليقين لدى البعض القليل من الشعراء ، فينحرفون عن جادة الطريق ، وهنا يوجههم الرسول الكريم ، أو خلفاؤه الراشدون ، كما حدث فى المواقف المروية قبلا .

وإلى هذا رأى يذهب الدكتور د صلاح الهادى ، ، فبعد مناقشة موقف الإسلام من الشعر يعلق قائلا : « نخلص من هذا إلى أن الإسلام لم يهرف المسلمين عن الشعر كله ، ولم يشغلهم عن إنشاء ما حسن منه ، أو إنشاده أو سماعه ، وأن الرأية الشعرية لم تمتطل كلها فى العهد النبوى ، (١) .

لقد نشط الشعر الإسلامى فى حواضر الحجاز - مكة والمدينة والطائف - كما ظال الشعر فى البوادرى - قبل أن ينتشر فيها الإسلام - ظل مصورا لحياتها مروجا لقيمها وأعرافها . وكان الأستاذ الدكتور د شوقى ضيف ، قد سبق إلى هذا رأى أيضا : « من الظلم للإسلام أن يقال إنه كف العرب عن الشعر ووقف نشاطه ، فقد كان ينشد على كل

(١) الأدب فى عصر النبوة والراشدين : ص ٢٢٧

لسان ، وساعدت الأحداث على ازدهاره لا على خوله ، (١) .

وفي مجال التعارض بين قيم الإسلام والشعر الجاهلي وما أدّى إليه هذا التعارض من محاربة الإسلام للشعر يدلّ المستشرق دجيب بدلوه : . . . إن الإسلام والرسول الذي كان له شاعره الخاص به ، حسان بن ثابت ، قد وقفوا منذ البداية موقفًا معاديًا للفن الشعري ، ذلك أن هذا الشعر كان سجلًا للقيم والمثل الجاهلية التي جاء الإسلام للقضاء عليها .

ويقول مرة أخرى د ومن هنا نبحث هذه الحقيقة التي تهدمنا وهي أن ظهور الإسلام لم يخلق شاعرا واحدا في أمة الشعراء ، وأن تسجيل الشعر الإسلامي لأجناد الإسلام - بالقياس إلى أجماد الماضي في الشعر الجاهلي - لا يتمدى قصيدة كعب بن زهير (بانث سعاد) وحتى هؤلاء الشعراء المعروفون الذين كانت لهم مكانتهم الشعرية في الماضي ، قد أمسكوا عن قول الشعر ، فلا يعرف مثالا شعر إسلامي للمبيد ، ذلك الشاعر العظيم الذي كان شعره ، كما تصوره معانيته المعروفة ، من خير أشعار الجاهلية جميعا على الرغم من أنه قد عاش بعد إسلامه ما يقرب من ثلاثين عاما ، (٢) .

أوشكت - والله - أن أنجاهل هذا النص لما فيه من سوء فهم

(١) العصر الإسلامي : ص ٤٦

(٢) قضايا الشعر في النقد العربي : د . إبراهيم عبد الرحمن ص ٢٧٥

ومغالطات وجمل بالحقائق ، ولكفى خشيت أن يطالع عليه بعض
التأشبه فيما أثر به أو يتصور صحته ، فلنتبع المغالطات إن : دجب ،
يناقض نفسه من البداية حين يدعى عدارة النبي للشعر ، واتخاذ
شاعرا خاصا ، فكيف يكون ذلك ؟ أما رعم العداوة فقد دحمناه
من قبل ، وأما أن الإسلام لم يخلق شاعرا واحدا ، ففيه ضيق فهم
للجمد الزمني ، لأن الإسلام لا يعنى سنوات البعثة وحياة الرسول
ﷺ فقط ، كما لا يعنى سنوات خلافة الراشدين أيضا ، وإنما الإسلام
يعنى أكثر من أربعة عشر قرنا منذ ظهوره إلى الآن ، ولذا حدد
حكمه بالسنوات الأولى ، أى عشر أو عشرين سنة ، فهم غير كافية
طبعاً لحاق شاعر في أى مجتمع ، وليس في المجتمع الإسلامي رحمه ،
مق يولد ويتوقف ، ومتى ينبغ شاعرا ؟

وفي القول كذلك جمل بالحقائق الأدبية والتاريخية ، فأين
الشعراء المخضرمون الآخرون - فخر حسان - كعب الله بن رواحة
وكعب بن زهير والناطقة الجعدى والأعشى الكبير ، وأبيد وكعب
بن مالك والعباس بن مرداس والحسين بن الحنم المارى ، والشمخ
بن ضرار ، ومهم بن نيرة وأبو ذؤيب الهذلى والمخبل السعدى والفز
بن تولب وضرار بن الأزور وأبو محجن الثقفى والبريق بن عياض
الهذلى وأمية بن حمران الأسكر . . وذيرهم ؟ والجيع في مطالع العهد
الإسلامى ، فإذا تقدمنا قليلا وجدنا الرقيات والسكيت وابن أبى ربيعة ،
ماذا يقول دجب ، حينئذ في الشعراء الإسلاميين ؟

وما قاله عن تسجيل أجداد الإسلام في «بانت سعاد، سذاجة وجهل،
لأن القصيدة كانت في أول لقاء بين الشاعر والنبي عليه صلوات الله
وسلامه ، وكان كعب لا يبغى أكثر من الاعتذار وطلب العفو وإعلان
التوبة والإسلام ، وقدم بين يدي ذلك ببضعة أبيات تمدح الرسول
والمهاجرين ، دون أية إشارة لمجد الإسلام ، ولجيد له شعر إسلامي
ذكره كثير من الدارسين ، وبقية الشعراء المعروفين لم يمسكوا عن قول
الشعر ، وإلا فلن ينسب هذا الحكم الكبير من شعر صدر الإسلام ؟
بقي في مجالنا هذا مناقشة قول الأصمعي شاع في كذب النقد وتاريخ
الآداب للتقدماء والمحدثين ، ويندور حول ضعف شعر حسان ، يقول :
« الشعر نكد بابه الشر ، فإذا دخل في الخيز ضعف ، هذا حسان بن
ثابت ، فل من فحول الجاهلية فلما جاء الإسلام سقط شعره ، وقال
أيضا : « شعر حسان في الجاهلية من أجود الشعر ، فقطع مقته
في الإسلام » (١) .

ولم نلناستغرب هذا القول من أحد رواة الشعر الجاهلي المشاهير ،
وأحد اللغويين أيضا ، لقد تمارس بذلك الشعر وتشربة ، فتربى ذوقه
عليه ، وصار لا يحن جمالا إلا فيه ، ولا يستمتع بغيره سواه ، إن
ما يصدر به مقولاته من أن الشعر يحسن في حالات الغضب ومواقف
الشدة وحدة الأفعال ، وبجمل ذلك في كلمة نكد ثم شر ، هذا

(١) المرجع السابق ص ٢٧٢

السلام يخالف الحكم النقدي الصائب، وهو أن قوة الشعر وأصالته، أو ضعفه وزيفه وكذا جماله وتأثيره، أو قبحه وهوانه، كل ذلك إنما يرجع إلى مقدرة الشاعر وموهبته، وامتلاكه لادوات التعبير، ثم إلى معاناته الصادقة التجريبية ومعاشتها، حتى يستطيع نقل انفعاله المتلقية، وسواء كانت التجربة خيِّرة أو شريرة، سواء كان العامل المؤثر في النفس هاجساً رحةً وتماطف، أو كان نزوعاً للقسوة وفرضاً للقوة، سواء كان حباً أم كراهية، إقبالاً أم إعراضاً، ترغيباً أم ترهيباً، وأياً ما كان مصدره: داخلياً أو خارجياً، إن المعوّل هو التأثير بهذا العامل والانفعال به، ثم إيصال هذا الانفعال المتلقى بالتعبير عنه تعبيراً جميلاً صادقاً وسوف نرجى الحكم على شعر حسن في جاهليته وإسلامه إلى دراسة مفصلة فيما بعد.

والآن نصل إلى حجة إعجاز القرآن وإنه فاراد العرب به، وهم القوم اللسانون للبلغاء، المعتدّون بفصاحتهم وبيانهم والقرآن أثر في جميل، بالغ من الرفعة أسمى ما يمكن أن ينتهي إليه أثر في هذه اللغة (١) لحدث لهم ما يشبه الصدمة أو الإخام وأثر ذلك على بلاغتهم التي ظهر مدى تواضعها وضآلتها إذا قيست بالقرآن، ولذا كف البعض عن قول الشعر، أما من واصل عطاءه، فقد جاء شعره في مستوى أقل جودة لإحساسه بالعجز وشعوره بالهالة أمام هذا الطود الأشم

(١) تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري

د. عبد العزيز السكهراوي ص ١١٣

الذى لا تتناول اليه الاعناق ، (١) .

ولم هذا يذهب أيضا الأستاذ محمد البهيق : « فشغلوا بالقرآن ، وسكت الشعراء ليستمعوا الى كلمة الله » ، (٢) .
ولعل المحدثين قد تأثروا بخطى ابن خلدون في قوله « ثم انصرف العرب عن ذلك أول الإسلام بما شغلهم من أسرار الدين والنجوة والوحى ، وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه فأخسوا عن ذلك وسكنوا عن الخوض في النظم والنثر زمانا ، ثم استقر ذلك ، وأونس الرشد من الملة ، ولم ينزل الوحى في تحريم الشعر وحظره ، وسمعه النبي ﷺ وأتاب عليه ، فرجعوا حينئذ الى دينهم منه » ، (٣) وقد فأت المحدثين تحديد الفترة التى انجبرت فيها العرب ، وسكنوا عن الشعر ، كما حاول ابن خلدون ، وإن لم يكن دقيقة فى تحديدها . على كل يمكننا أن نناقش هذه الآراء مجتمعة ، فنبسأل : على من يصدق حكم الانصراف عن الشعر ، أو نظمته بمستوى أقل ؟ إن كان على المسلمين فإنه غير جائز ، لأنهم يعرفون أن القرآن وحى إلهى وكلام أنزله الله ، فلا موضع للمقارنة بينه وبين كلامهم ، لقد اعتبروه مثلاً أعلى ، يتأثرون به ويقنعون ببلاغته ، ولم يكنه ليس مفاغسا يتعارون معه .

(١) الخطيبية : د . درويش الهندى ص ٦٣

(٢) تاريخ الشعر العربى حتى آخر القرن الثالث الهجرى

د . عبد العزيز الكفراوى ص ١١٣

(٣) مقدمة ابن خلدون : ص ٥٤٧

ولا وجه لإدخال شعراء المشركين في القضية لأنهم كانوا
في القرآن أصلاً ، وأبوا الاعتراف بإعجازه وإلجأه ، بدليل
ادعائهم أنه شعر أو سحر أو كهانة ، وتطاولهم بزعم القدرة على
الإتيان بمثله ، بن ومحاولة ذلك ، وجاء النجاشي الإلهي ردأ على المكابرة
(قل لمن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ،
لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم ليؤمنين ظهوراً) (١) . ثم إن هذه الحجة
لا تتفق وما يحفظ عن تلك الفترة من شعر للمسلمين وللمشركين .

وفي قصوري أن مقصد ابن خلدون هو معالجة الأمر على أنه ظاهرة
اجتماعية ، فالجديد يهز الناس ويشد انتباههم فترة ، يتحيدون فيها
بين القبول والرفض حتى يألفوه ويقتنعوا به ، ويسهم في نسج
عقولهم ويصبح جزءاً من ثقافتهم ، فيعسر على إبداعهم الأدبي .
وهذه النظرة قد تنسر عدم تأثر الشعر تأثراً عميقاً بقيمة الإسلام
ومبادئه في السنوات الأولى للبعثة ، ولكننا لا نصلح لتبرير القلة
أو الضعف .

ويعبر « ابن سلام الجهمي » عن القضية بكلمتي تشاغل واهت ،
وذلك مكان انصرفوا وسكنوا « فجاء الإسلام فتشاغلت عن الشعر
العرب ، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ، واهت (العرب)
عن الشعر ودوايته ، فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح ، واطمأن

(١) سورة الإسراء : آية ٨٨

العرب بالأمصار ، راجعوا رواية الشعر ، فلم يؤولوا إلى ديوان مدون ، ولا كتاب مكتوب ، وألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ، لحفظوا أقل ذلك ، وذهب عليهم منه كثير^(١) . ولئن كان النص يعالج مشكلة ضياع الكثير من الشعر الجاهلي ، وسوف نتطرق من ذلك إلى مشكلة الوضع والتزييف أو الانفعال ، إلا أن اتكاه الكثيرين عليه كشاهد على انشغال العرب عن الشعر بالإسلام والجهاد ، جعل الدكتور شوقي ضيف يرد عليه^(٢) وأما قوله بأن العرب لم تهت عن الشعر وشغلت بالجهاد ، فينقضه ما تحمله كتب الأدب والتاريخ من منظوماته الكثيرة ومن أسماء ناظميه ، ويرد باحث آخر دقلو كان العرب قد تشاغلوها عن الشعر وروايتهم وفقد تأثيره على عواطفهم ووجدانهم ، ما أهدر الرسول دم كعب من أجل شعره الذي هجاء به ، وما كان الرسول يسكافته بأن يطلع عليه بردته^(٣) . ونفس الكلام يصدق على مواقف عديدة غضب فيها الرسول ﷺ ، لشعر ، أو رضى وأثاب عن شعر . وما انضبط والرضى في هذه المواقف أمر شخصي فقط . ولكنه من أجل الجماعة فلولاً علم الرسول بأمر ذلك الشعر حين يتناقل على الألسنة في أنحاء الجزيرة ، لما غضب

(١) قضايا الشعر في النقد العربي . إبراهيم عبد الرحمن ص ٢٧٢

(٢) دراسات في نصوص وأدب العصر الإسلامي ص ٣٩

(٣) نحو أدب إسلامي معاصر : ص ١١٣

أورضى ، واعتراض قريش طريق الأعمى كلما هم بلقاء الرسول فتلبطه عن ذلك بمال يغريه أو تهديد يثنيه ، إنما كان خوفاً من أن يسلم ، فيصبح شهره قوة في جانب المسلمين .

لم يكن الجهاد والفتوح شاغلاً للعرب عن الشعر ، بل كان من أهم عوامل قوته ، وازدهاره ، كما سنرى فيما بعد .

ثم إننا يجب أن نفرق بين العمل المادى الذى قد يشغل عنه الإنسان بعمل آخر ، وبين الانفعال الذى لا ينفقه مكان أو زمان ، فحينما انفع الشاعر فتجرت قريحته ، وسال لسانه بكلمات الشعر ، (١) وأخيراً . . فإن بعض الدارسين يرى أن الشعر الجاهلى قد بلغ قمة نضجه ، واعتصر كل ما فى أنماطه من إمكانات فنية قبل الإسلام ، فاجتمع فى فترة قصيرة عدد من كبار الشعراء ، وانتهى عصر هؤلاء الكبار فى وقت إشراف النور الإسلامى ، فكان على الشعر أن يختار بين حياة جديدة بأدوات تعبيرية وقيم فنية جديدة ، وبين الإفلاس واجترار ما قال السابقون ، ولما كان التجديد يحتاج زماناً حتى يتقبله المبدع والمتلقى . ومن هنا نلاحظ هذا الضعف فى شعر صدر الإسلام ، حتى ينمو جيل جديد من الفحول يرد إليه قوته ويعوضه ما فقد بانتهاء عصر فحول الجاهليين .

والحق أن هذا القول بانتهاء عصر الفحول قبل الإسلام . وأن الشعر الجاهلى بلغ مرحلة الشيخوخة والوهن ، هذا القول نوع من التعميم غير العلمى ، أو غير الموضوعى ، فنن المفروض أن العباقرة

(١) نحو أدب إسلامى معاصر ص ١١٣

وكبار الشعراء أو الأدباء لا يظهرون في عام واحد ولا يذهبون كذلك في عام واحد ، قد يتقارب نبوغهم زمنيا ، وقد يتعاصرون ، ولكن ظهورهم واختفاءهم يتم متتابعا أو متلاحقا بحيث لا تغلو ساحة الأدب والشعر تماما من بعضهم ، ربما زاد العدد أو قل في فترة عنه في أخرى ، ولكنهم لا بد موجودون بشكل أو بآخر ، ذلك منطق الطبيعة وسنة الحياة حتى يسلم السابق رايته للإحق وتستمر المسيرة متواصلة حية ، وهو حكم السكون في كافة المجالات الإنسانية وليس الأدب فحسب .

وفي مجالنا خاصة نجد أن الاسلام قد أشرق نوره على الجزيرة وفي الساحة الشعرية أصوات عالية شهيرة ، تنافس وتماهى ، مضيئة إلى التراث ، مهيبة الفرصة لأصوات غضة تنالس طريقها وتقتدى بالكبار ، إنما نجد وحسان بن ثابت وكعب بن زهير ولبيد بن ربيعة والعباس بن مرداس والحطيئة والذليلين ، وغيرهم وقبل أن يبرح هذا الجيل ساحة الشعر ودنيا الناس ، كان جيل آخر من النحول يتشرب منهم أصول الشعر ، ويضيف من عنده ، ما لم يلحظه السابقون بسبب التطور ، فلم يكن في عصر الإسلام عباقرة وشعراء كبار ، لما ظهر هذا العدد الغفير من شعراء عصر بني أمية ، وهم على هذا المستوى الرائع ، والذي فاق الجاهليين كثيرا كتما وكيفا ، إن السفوات القليلة التي تفصل بين عصر صدر الاسلام ، وعصر بني أمية ، لا تكفي لنبوغ هؤلاء الشعراء ، لو لم يصادفوا أساتذة بوجهم ونهم ، وكبارا

يرشدونهم ، ومثلاً يقتدون بها ، وقد لا يكون التوجيه مباشراً ،
أو التعليل في قاعة الدرس ، ولكنهما القدوة والمثال ، والآثار الذي
يربّي ويثقف .

ولا ريب أن الإنصاف يقتضينا عرض آراء من قالوا بقوة الشعر
وازدهاره في صدر الإسلام - وفيهم قدماء ومحدثين - وهم قد
يستخدمون أدلة القائلين بالضعف على أنها أدلة قوة . إذا
نظرنا إليهما من زاوية أخرى ، فإعجاز القرآن مثلاً ، حافز
للشعراء وقدوة لهم في الفصاحة والبلاغة ، تجدد أساليبهم ، وتمدد
بأنماط فنية لم تكن معروفة للجاهليين ، والوقرة واللين اللذان يشار
إليهما في شعر حسان أو غيره من الإسلاميين ، هما من تان ودليلا
تطور سرف تتضح قيمتهما حين يتقدم الزمن ، وتلتق بالفن العذري ،
أما المعارك بين الإسلام وأعدائه ، ثم حروب الردة ، وما تبعها من
الفتوح ، فقد كانت خيراً وبركة على الأدب عامة والشعر خاصة ، أو لم
تظهر شعاعية قريش ، وتمدد الشعر بموضوعات جديدة ، وتفجر طاقة
الإبداع عند كثيرين لم يعرفوا بها قبلاً ؟

وتبقى النيم الإسلامية الجديدة والتي حزن من أجلها محبّوا الشعر
الجاهلي وتساءلوا في أسف : فماذا بقي من أفراس الشعر ؟ (١) ، إنما في
رأى المُنصفين طوق النجاة - ليس للحياة العربية فقط - ولكن للعالم

(١) تاريخ الشعر العربي : ص ٥٥

أجمع ، وأيسر في ميدان الدين والمجتمع لحسب ، ولكن في مجال الشعر والفن عامة . فلنفصل ذلك :

هناك بعض الملاحظات التي توضع في الاعتبار عند إصدار الحكم بالقوة أو بالضعف على الشعر في فترة الذروة والحلقاء الراشدين ، وتلك الملاحظات هي :

١ - قصر المدة الزمنية - موضوع الحكم - فهي لا تتعدى أربعين سنة ، وهي مدة أقصر من أن تتيح الفرصة لنمو الشعراء الجدد ، أو تأصيل القيم الفنية المستحدثة ، أو حتى إنتاج الحكم الشعري الكافي للحكم ، في حين أن الشعر الجاهلي موضوع المقارنة قد استغرق ما بين أومائة وخمسين سنة ، أرسى تقاليده ، وقعدت لغزونه ، وتوصل إلى أساليبه التعميرية وأدواته ، وخاض التجارب العديدة حتى استكشف طريقه ، وكثرت نماذجه وتنوعت ، فسماحت للدارسين حماية التعميل والدرس والحكم ، بل بررتهم بكثرتها وتنوعها ، فكيف تصح المقارنة ؟ .

٢ - وهناك كذلك ملاحظة هامة : لقد هاش الشعراء الجاهليون حياة تكاد تكون ثابتة بلا تغيير ، وأشربوا قيما لا تبدل عبر مئات السنين ، وتكيفوا معها وعرفوا طرائق التعبير عنها وتعميرها ، أما الشعراء المسلمون فبعد التحول الهائل في القيم والعقيدة على أيدي النبي ﷺ تلاشت الأحداث ، من صدام مع الكفر والشرك ، إلى

فتح مبين وانصر مؤزر ، ثم موت الرسول الكريم وما أحدثته من هزة
أوشكت أن تذهب باب أعقل العقلاء ، وما تبعه من نقاش حول
الخلافة .

ثم حروب الردة التي ذلزلت عقائد ضعيفة ، وهزت نفوساً خائرة ،
وبعدها فتوح الإسلام ، فوطئ الأمر في أراضى كان يستحيل عليه أن يطأها ،
ورأى حضارات واطلع على ثقافات لم يكن ليراهم — لولا الفتوح ،
والأهم من ذلك أنه عاش يجارب جديدة ، وعانى هموماً وشواغل لم
يعرفها آباؤه وأجداده ، حركت في نفسه كوامن الإبداع وفجرت
على كنهاته ، وحفزته لتصويرها في الشعر ، وليكنما تحتاج زمناً لتختصر .

٣ — وعليها أن نراعى أيضاً — قبل الحكم — أن شعر هذه الفترة
يضم شعر المسلمين وشعر المشركين ، وأن شعر الشرك قد أهمل وضاع
أغلبه ، لما فيه من مساس بالدين والرسول والمسلمين ، فالحكم هنا يصدر
على بعض الشعر وليس عليه كله ، وحتى هذا البعض الذي نحكم عليه ،
مبعثر متناثر في عشرات الكتب والمخطوطات ، منها كتب الأدب
الموسوعية ، وكتب السير والمغازي والتاريخ ، كذا كتب الطبقات
والأنساب وكتب الصحابة ، ولذا : فليسكني لنا حكم صحيح يجمع
جميع وتصنيف كل هذا الحكم من الشعر ، والدليل على ذلك التوزيع
للشعر في مطلع المهد الإسلامي ، هو أن النماذج التي ترد منه في كتب
تاريخ الأدب تختلف وتتنوع حسب المصدر الذي أخذ عنه الدارس ،
فهذا من السيرة ، وذلك من الطبري ، وغيرهم من الأغاني ، وهكذا .

بقي أن نسمع لمن قالوا بالقوة وتتعرف على أدلتهم منفصلة :

١ — يقول ابن خلدون لأن كلام الإسلاميين من العرب
أعلى طبقة في البلاغة وأذواقها من كلام الجاهليين في منشورهم ومنظومهم .
فإننا نجد شعر حسان بن ثابت وعمر بن أبي ربيعة والطيبة وجريرو
والفرزدق ونصيب وغيلان وذو الرمة والأحوص وبشار ، ثم كلام
السلف من العرب في الدولة الأموية وصدر الدولة العباسية ، في
خطبهم وترسلهم ، ومحاوراتهم للملوك ، أرفع طبقة من البلاغة في شعر
الناطقة وعنترة وابن كثوم وزهير ، وعائقة بن عبدة وعارفة بن العبد ،
ومن كلام الجاهلية في منشورهم ومحاوراتهم ، والطبيع السليم والذوق
للصحيح شاهدان بذلك للفاقد البصير بالبلاغة . والسبب في ذلك أن
هؤلاء الذين أدركوا الإسلام وتجمعوا الطبقة العالية من الكلام في القرآن
والحديث اللذين عجز البشر عن الإيمان بمشايخها ، أسكنوها ولجت في
قلوبهم ، ونشأت على أساليبهم نفوسهم ، ففهمت طباعهم وارتقت
ملسكاتهم في البلاغة على ملسكات من كان قبلهم من أهل الجاهلية ممن لم
يسمع هذه الطبقة ، ولا أنشأ عليهم ، فكان كلامهم في نظمهم ونثرهم
أحسن ديباجة وأصفى رونقا من أولئك ، وأرصف مبدئي ، وأعدل
تنقيفا بما استفادوه من الكلام العالي الطبقة ، وتأمل ذلك يشهد لك
به ذونك إن كنت من أهل الذوق والتبصر بالبلاغة ، (١) .

(١) المقدمة : ص ٤٣ ، ٤٤

والى أثر القرآن على بلاغة العرب تشير الدكتور د بنت الشاطىء ،
وهى تشرح مدى اعتزاز العرب بفصاحتهم ، وكيف كان القرآن
تشرىفا لهذه الفصاحة ، فهو آية تقدير لبيان العرب ، لم يجهل لتعطيل
البيان ، بل انقر للعرب بشرف اقيادة الوجدانية ، (١) وفضل القرآن
لا يقتصر على كونه قمة فى جهال التعجب ، ودقة الوصف وكمال البلاغة ،
أو بقول موجز : إعجاز بياى ، لىكن فضله على الأدب شعرا ونثرا
يكن كذلك فى كونه وحيد العرب لغويا حين صهر لهجاتهم فى بوتقة
اللهجة القرشية بعد تطعيمها بمفردات وأصايب من اللهجات الأخرى ،
وبذا فتحت مجال الذبوع والانتشار أمام الشعر العربى الاسلامى بعد
الفتوح ، وكان القرآن الكريم حانظا ومستودعا للعرية أبد الدهر ،
ورغم تقلبات الأحداث والأزمان ، فظلت من أقدم اللغات الحية .

٢ — وفى مقدمة المحدثين من مؤرخى الأدب الذين يدفعون تهمة
ضعف الشعر الاسلامى ويذهبون الى رأى الماكس ، دكتور
« شوق ضيف » ، ويرى أن من أهم الأسباب التى أدت لنهضة الشعر
وازدهاره إبان البعثة وعهد الراشدين ، ما تتابع من أحداث هامة
مؤثرة فى الجزيرة ثم فيما حولها وكون الشعر — إسلاميا — قد واكب
هذه الأحداث ، فبكل حدث وقع أسهم الشعراء بتسجيله وإثبات
نتائجه ، يفخرون بما فيه نصر للدين وإعلاء لكلمة الله ، وينددون
بأعداء الإسلام . ففى بداية الدعوة كان الشعر سلاحا فعلا ضد

(١) قيم جديدة فى أدبنا ص ٨٣

الكفار والمشركين، برد كيدهم وينافح عن الرسول ﷺ وعن المسلمين،
وفي حروب الردة ، خاض المسلم المعركة بلسانه كما خاضها بسيفه ،
فهاجم المرتدين وحس المجاهدين .

فلما استقرت الدولة وانطلقت قوافل النور والإيمان إلى أفواج
الأرض ، رافقهم الشعر يعزف على أوتاره القديمة ويستحدث أخرى
جديدة ، وفي فتمة عثمان وفي حروب علي ، في كل تلك الأحداث لم
يحفظت صوت الشعر مبعرا عما يعتقه كل فريق من رأى « فالشعر لم
يتوقف ولم يتخلف في هذا العصر ، وهذا طبيعي لأن من عاشوا فيه
كانوا يعيشون قبله في الجاهلية ، وكانوا قد انحلت عقدة لسانهم وعبروا
بالشعر عن عواطفهم ومشاعرهم ، فلما أتم الله عليهم نعمة الاسلام
ظلوا يصنعونه وينظمونه » (١) .

وبعض الدارسين الذين ذهبوا إلى ضعف الشعر الاسلامي لم ينكروا
مواكبة الشعر للأحداث ، يقول الدكتور الكفراوي « يل إن كبار
شعراء تلك الفترة ، البعيدين عن ميدان المعركة ، لم يفلتوا من جاذبية
تلك الثورة الجديدة المبهشة من الحجاز ، وإن لم يتدخلوا فيها تدخلًا
مباشرًا ، ومنهم الأعشى الكبير الذي مدح الرسول بدالية رائعة » (٢) .
وقد اعتبر بعض النقاد أن المشاركة المستمرة من الشعراء

(١) العصر الاسلامي : ص ٤٣

(٢) تاريخ الشعر العربي ج ١ ص ٥٤

في الأحداث المتلاحقة ، اعتبروها سبباً لهبوط مستوى الشعر ، وهو قول فيه نظر ، فالاصل أن هذه الممارك كانت عامل إذكاء للشاعرية ، ولإثارة البواهب ، ودعوة للشعراء كي يؤديوا دورهم ويلغوا رسالة الشعر في نصرة الحق والخير ، وهي مجال للتباري والاحتكاك بين الفرائح . أما الاحتجاج بأن شعر الأحداث ربما غلب عليه طابع المناسبات الزوقية ، وأنهم بأسلوب الخطابية والمباشرة ، فإن الرد على ذلك هو أن المناسبة كثيراً ما تصبح مجرد تكتكة أو نقطة انطلاق تهييج عاطفة الشاعر ، وتثير وجدانه ، وتفتح أمامه آفاقاً جديدة ، ثم إن العرب قد اعتادوا على مثل تلك المجازات الكلامية منذ جاهليتهم ، وهم شعراء بالفطرة والسليقة ، وكثيراً ما يرتجلون ، فليس الأمر جديداً عليهم ، وليس كل شعر المناسبات هابط المستوى أو ضعيف فنياً .

على أن زهو المسلم وهو يحس أنه بشعره ينصر الدين ، ويعلى الحق ، ويزهق الباطل ، ويجاهد في سبيل الله ، كل ذلك يحفز به إلى التجويد ويزيد في طاقة إبداعه .

(٣) ثم يستشهد المعارضون لمسلم الضعف على الشعر الاسلامي بكثرة النصوص التي خلفتها تلك الفترة على نصرها ، لقد خص ابن هشام الشعر بباب واسع في صدره ، يضم عقائد القصائد ومئات الابيات وكذلك الطبري ، ثم كتب الادب كالأغاني ، وكتب الصحابة كالإصابة والاستيعاب ، جميعها ذخيرة بقصائد ومطولات وقطع

تدحض زعم من قال بضعف الشعر أو خوله وهو زعم غير صائب ، بل هو زعم يسرف في تجاوز الحق ، وبعد رد الزعم يرى الدكتور « ضيف » أن قوة العقيدة في قلوب الشعراء ورغبتهم في أن يعم نورها جميع الخلق ، مما جعلهم يتسابقون إلى الاشتراك في الجهاد ، وجعلهم لهذا يصعدون عن هذه العقيدة في شعرهم « صدور الشدى عن الأزارح الأربعة » (١) .

ويذهب الدكتور السكراوى إلى هذا الرأي في إحدى المرات التي انتقل فيها من المؤيدين لتراجع الشعر ، إلى صفوف المعارضين لذلك ، وإن امتعمل فعل الظن « وأظننا الآن ، وبعد أن وقفنا على هذا العدد الضخم من الشعراء الذين وقفوا بجانب الدعوة الجديدة أو ضدها ، نستطيع أن نؤكد ما قلناه سابقا ، من أن تلك الدعوة قد أذكت الشعر واجتذبت كثيرا من الشعراء نحوها » (٢) .

(٤) وهناك دليل جديد على النشاط والازدهار الشعرى في عهد الرسول الكريم صلى الله عليه وآله ، وهو نبوغ عدد من الشعراء في بيئات لم تعرف قبل الإسلام بالشعر ، ولم تهتم به ، وتلك هى الحواضر والمدن الحجازية ك مكة المكرمة والطائف . لقد عاش الجاهليون زمانا والشعر مركز في البادية ، وليس للحاضرة إسهام فيه ، اللهم إلا بعض الأهاجى

(١) العصر الإسلامى : ص ٥

(٢) تاريخ الشعر العربى : ص ٥٣

بين الأوس والخزرج في يثرب ، فلما بعث النبي ﷺ وتصدت له قريش بالإلحاد والكفر، ثم هاجر بناء على أمره، وتفجر الصراع بين مجتمع الإيمان في المدينة ومجتمع الكفر في مكة ، وشارك الشعر في كلا المعسكرين فظهر الشعراء في مكة أولا ، كما كثر شعراء المدينة ، ثم انضمت إلى ذلك الركب الشعري حراضر أخرى ، فالمدن والحواضر المجازية كانت أوثق اتصالا وأسرع تأثرا بدعوة الإسلام - تأييدا أو معارضة - لقد وفر الإسلام بما أحسنه من زلزلة دينية واجتماعية واقتصادية ، أدت إلى الصراع - وهو أهم باعث للشعر ، وهو الشارة كما عبر ابن سلام ، أو الصدام العسكري الذي يولد الصراع المسلح .

كذلك اعتادت مكة من قديم على مكانتها الدينية ، وافتخرت قريش بسدانة الكعبة ، فلما جاء الإسلام ، سلمها هذه المكانة فبحثت عن مجال آخر للمجد والشهرة كانت تهمله من قبل ، وهو مجال الشعر الذي رأت فيه أيضا سلاحا باترا .

هـ - ولا مرء في أن الإسلام وما رافقه من أحداث ، سواء في السنوات الأولى داخل الجزيرة العربية ، أو فيما بعد حين انطلقت الجيوش الفاتحة تكبر باسم الله عبر حدود الجزيرة ، لا مرء في أن ذلك قد هبأ للشعراء أغراضا جديدة ، وافتته إلى ميادين لم يطرقها من قبل ومن حسن حظ الشعر الجاهلي أن الإسلام - بما يمثله من قيم أتاح له فرصة ذهبية للتجديد ، حيث أتاح للشخصية الفردية استقلالها

وحررها من داخلها ، وارتقى بها عن الارتكاس في المادة ، وجهها
تستشرف آفاقاً روحية فسيحة وسامية ،^(١) ولأنها سوف تذكر تلك
الأعراض حين نستعرض النماذج فلذلك نترك تفصيلها الآن .

٦ — وآخر ما يستند إليه دعاة القوة والنماء في الشعر الإسلامي هو
المطالبة بمنظرة نقدية جديدة إلى ذلك الشعر ، نظرة تتحرر من معايير
الشعر الجاهلي ، وتنطلق من إसार جاذبيته ، نظرة تضح لنفسها مقاييس
واعتبارات تلبيح من هذا الشعر الذي يتحدث عنه ، ولا تقيسه باعتبارات
شعر آخر سبقه ، أيأ ما كانت قيمة ذلك الشعر وروعته .

(١) قراءة في الشعر الإسلامي والأموي : ص ١٥

خامسا : نماذج من الشعر الإسلامي

على الرغم من أن الصراع المساح والصراع الشعري ، لم يتفجر
إلا بعد هجرة الرسول المطفئ ومن آمن معه إلى المدينة، على الرغم من
ذلك إلا أن نفثات شعرية قليلة صدرت عن البعض ، ومنها ما قاله
« عثمان بن مظعون » وقد دفعه أذى ابن عمه - أمية بن خلف - إلى
الفرار بدينه واللجوء للحبشة ، ومن هناك أرسل معاتبا على ما بدر
منه محذرا لياه من عاقبة البغي (١) :

أقيم بن عمرو للذي جاء بنضـة

ومن دونه الشمران والبرك أكنع

أأخرجتنى من بطن مكة آمنا

وأسكنتنى في صرح بيضاء تقذع

وحاربت أقواما كراما أعزة

وأهداك أقواما بهم كنت تفزع

سئل من نابتك يوما ملبدة

وأصلك الأوباش ، ما كنت تصنع

كذلك تحفظ الكتب المؤرخة لتلك الفترة قصيدة نادرة ،

نظمها أحد مؤيدي قريش - أبو قيس بن الأسات - وقد غاف مغبة

(١) تاريخ الشعر العربي ص ٢٩ . الحمزة للنداء ، تيم بن عمرو: هو

جج - جد عثمان وأمية ، الشمر: الخناجج أو البعير .

والشمران هما الخليجان بين اليمن والحبشة ، والبرك اسم لمواضع

منها اليمن ، أكنع : أجمع ، تقذع : تلام وتذكرو . الأوباش : السفلة ،
ملبة : كاريشة .

النزاع بينهم وبين الرسول ، فنصحتهم في هذه القصيدة أن يسمعوا
لصوت الحكمة ، ويعالجوا الخلاف بوسائل السلم والجدل العقلى (١) :

يا راكباً أما عرضت فبإغن
مغلغلة عني ، أوى بن غالب
وقل لهم — والله يحكم حكمه —
ذروا الحرب تذهب عنكم في المراحب
حتى تبعثوها ، تبعثوها ذميمة
هي الغول للأقاصين ، أو للأقارب
مقطعت أرحاماً ونهلك أمة
وتبرى السديف من سنام وغارب
وتسببوا بالأتهمية بعدهما
شليلاً وأصداء ثياب المحاربه (٢)

(١) المرجع السابق : ص ٢٩/٣٠ ، مغلغلة : رسالة ، المراحب :
جمع مرحب وهو المكان الواسع ، السديف : لحام السهام ، الغارب :
السكاهل .

(٢) الأتهمية : ثياب يمنية فاخرة ، الشليل : ما يلبدن تحت
الدرع ، الأصداء : الدروع الصدئة ، الغبر السوابغ : الدروع ،
القتير : مسامير الدروع ، الجنادب : الحراد .

وبالمسك والكافور غبراً سوابغا كأن قنبريها ، عيون الجنادب

ولكن ، ما إن يهاجر الرسول الكريم والمسلمون إلى المدينة ، حتى يبدأ الصدام بين معسكر الإيمان والتوحيد فيها ، وبين معسكر الكفر والشرك في مكة ، وكان الصدام في ميدان القتال أولاً ، ثم نقلته قريش إلى ساحة الشعر ، حين تطارول بعض شمرائها بالقول على الرسول ﷺ والمسلمين ، وحينذاك استأذن حسان بن ثابت من الرسول في الرد عليهم ، وقيل بل ضاق المسلمون بهجاء المشركين فطلبوا من علي - كرم الله وجهه - أن يدفع عنهم سهامهم ، لكن علياً اعتذر - أو اعتذر عنه الرسول - وطلب المصطفى عليه السلام من الأنصار أن يمشفوا إلى أفضالهم فضلاً جديداً فيذهبوا الإسلام باللسان كما نصره باللسان ، وبدأ « حسان بن ثابت » ثم انضم إليه عبد الله بن رواحة وكعب بن مالك ، .

وإن كان الشعر الإسلامي قد بدأ في أول أسره رداً من شعراء الأنصار على المشركين بأغراض محددة ، وفي مناسبات خاصة ، إلا أنه فيما بعد ، ولا سيما حين فتحت مكة وعم الإسلام جزيرة العرب ، اتسعت نطاقه وتعددت مجالاته ، وكانت الفتوح الإسلامية خارج الجزيرة بمثابة فتوح شمرية عظيمة الأثر واسعة الأرجاء .

والنستعرض الآن نماذج من الشعر الإسلامي - دون التعرض لغير المسلمين - حتى يتسنى لنا الاطلاع على هذه الصفحات الوضيئة من تاريخ الشعر الإسلامي ، وتحرى الحقيقة في مستوى ذلك الشعر : من ضعف أو قوة ، وازدهار أو خمول . ورأيك - أعظمي لهذا الحكم من الشعر أن أعرضه بحسب الأغراض أو الموضوعات ، وبذا يأتي العرض شاملا من الناحية الزمنية لعصر الرسول ﷺ ، ثم خلفائه الراشدين ، على أن التتابع التاريخي سوف يتحقق ضمنا حينما نبدأ بالأغراض الإسلامية المبكرة ، مثل مدح النبي الكريم ، وهجاء المذركين ، ورفاء الشهداء في معارك مكة والمدينة ، وتهديد المشركين واليهود بما أعد المسلمون لهم ، والفخر بالانتصارات الإسلامية .

وتأتى بعد ذلك أغراض جدت في شعر الفتوح : كالحنين والاعتراب ووصف البلاد الجديدة وشعوبها ... وهكذا .

١ - مدح الرسول صلى الله عليه وسلم : يُعد مدح النبي ﷺ والاشادة به في مقدمة الأغراض المستحدثة والمجالات الجديدة للشعر العربي ، فحينما أشرق فجر الإيمان كان الرسول المصطفى هو المبلغ لهذه الرسالة السماوية ؛ وكان نبراسا وهاديا ، ومثلا وقبوة ، ومبشرا ونذيرا ورحمة مهداة ، وكان مدحه غير المدح الذي عرفه الشعر في جاهليته للسادة والملوك ، استعطاء للمال أو طلبا للشهرة والمجد الأدنى ، فيحشد الصفات الحمودة في مبالغة وتضخيم ، وقد يقول غير الحق ، وقد يمدح بما لم يوجد ، بل كان مدحه - صلوات الله عليه جمادا في

سبيل الله وقربى إليه سبحانه ، كان دفاعاً عن الدين وتثبيتاً له ، كان اقتباساً من هذا النور واهتداء به ، ومن هنا فقد كانت القصائد المخصصة لهذا الغرض كثيرة عديدة ، وكانت القصائد التي نظمها أصلاً لأغراض أخرى ، يحاول أن تشرف بأبيات في مدحه تتناثر خلالها كالمعق الشذى ، وإذا كان الاختيار صعباً - في هذا الحكم - بين القصائد والأبيات ، إلا أننا حرصاً على الإيجاز ، نكتفي بأبيات من قصائد الجرد الدلالة والتشيل .

• يقول الأعشى الكبير من قصيده تبلغ أربعة وعشرين بيتاً (١):

ألا أيها السائل : أين يعمت

فإن لها في أهل يثرب مرعدا

فأليت لا أرى لها من كلاله

ولا من حفى ، حتى تلاقى محمدا

نبي يرى ما لا ترون ، وذكره

أغار - لعمري - في البلاد وأنجدا

له صدقات ما تعب ، ونائل

وليس عطاء اليوم مانعه غذا

أجرك : لم تسمع وصاة محمد

نبي الإله ، حين أوصى وأشهد

(١) ديوان الأعشى الكبير ، تحقيق د . محمد حسين ص ١٣٥

لماذا أنت لم ترحل بزاد من النقي
ولا قيت بعد الموت من قد تزودا
ندمنا على أن لا تكون كمثله
وأنت لم ترصد ، لما كان أرسدا
● ويقول عبد الله بن رواحة (١) :
لما تفرست فيك الخير أعرفه
والله يعلم أما خافى البصر
أنت النبي ، ومن يحرم شفاعته
يوم الحساب ، لقد أزرى به القدر
فثبت الله ما آتاك من حسن
ثم ثبت موسى ، ونصر آل كاذب نصره

● وعبد الله ابن الزبيرى الذى تناول على النبى بالهجوم سنوات
وهو مشرك ، أصبح شديد الندم على ما قدم حين هداه الله فتأب واعتذر
بقصائد عديدة ومدح الرسول مرات كثر منها :

(١) شعر عصر صدر الاسلام ص ٩

يا خير من حملت على أوصالها
عيرانة سرج اليزيدى رسوم
إني لمعتذر إليك من الذى
أسديت ، إذ أنا فى الظلام أهيم
فاغفر ، فدسى لك والذاهى كلاهما
زلى ، فإنك راحم مرحوم
وعليك من سمت المليك علامة
نور أغر ، وخاتم مختوم
أعطاك بمدح محبة برهانه
شرفاً ، وبرهان الإله عظيم (١)
ومن شعر العباس بن مرداس قوله مثنيا على الفبي (٢) :
رأيتك يا خير البرية كلها
نثرت كتابا جاء بالحق معلما
ونورت بالبرهان أسراً مدمسا
وأطفأت بالبرهان ناراً مضمرما

(١) المرجع السابق ص ٧٥ . عيرانة : ناقة أصيلة ، : سرج : ليثة
رسوم : ثابتة الخطوة ، سمت : دلائل وظواهر .

(٢) المرجع نفسه ص ٧٧

فن مبلغ عن النبي محمدا

وكل امرئ يحزى بما قد تكلم

• يقول دحسان ، - شاعر الرسول - في إحدى روايته التي تعد
رداً منجماً على القائلين بهدف الشعر الاملائي (١) :

أغر ، عليه النبوة خاتم

من الله مشهود ، يلوح ويشهد

وضم إليه اسم النبي إلى اسمه

إذا قال في الخنس المؤذن : أشهد

وشق له من اسمه ليحمله

فقدوا العرش محمود ، وهذا محمد

نبي أمانا بعد يأس وفترة

من الرسل ، والأوثان في الأرض تعبد

فأمسى سراجاً مستنيراً وهادياً

يلوح كما لاح الصقيل الممعد

وأندرنا نارا وبشر جنة

وعالمنا الإسلام ، قاله محمد

(١) الادب في عصر النبوة والراشد بن ص ٢٤٨

ويقول في هزيمته التي دعا له الرسول بالجئمة مرتين من أجلها (١)
وفيها يذمر قريشاً ويرد على أبي سفيان :

هجوت محمداً فأجبتُ عنه

وعند الله في ذاك الجراء

فإن أبي ووالده وعِرضي

لعرض محمد منكم وقاء

أتهجوه ولست له بكنء

فشركا لحبيبا الفداء

هجوت مباركاً برا حنيفاً

أمين الله شيعته الوفاء

٢ — تمجيد الدعوة الإسلامية ومدح المسلمين الأوائل :

لا ريب أن المسلمين الأوائل — مهاجرين وأنصاراً — أصحاب
العزيمة والارادة ، الذين واجهوا الشرك وهو في أوج قوته ،
وعنفوان جبروته ، لا شك أنهم أصحاب الفضل الجديرون بالشأن والإشادة
فتقدّموا — مهاجرين وأنصاراً — عبء الجهاد في سبيل إعلاء كلمة
الحق ونصرة الدين ، ولم يقصّر الشغراء المسلمون في هذا المجال ،

(١) المرجع السابق ص ٢٥٣

فلا تكاد تخلو قصيدة إسلامية على عهد الرسول والراشدين من أبيات
تتمدح الأنصار أو المهاجرين أو كليهما معاً ، وتشهد بدورهم البطولي
في قصر الدعوة ومؤازرة النبي ، ثم تمجد الإسلام وما أضافه الله به على
العرب من نعمة الهداية وفضل الرشاد ، ها هو كعب بن زهير في
موقف الاعتذار والتوبة ، يذكر للمهاجرين فضلهم ويحمدهم (١) :

في عصبية من قريش قال قائدهم

ببطان مكة ، لما أسلموا : ذلوا

ذلوا فما زال أنكاس رلا كشف

عند اللقاء ، ولا ميل معاذيل

مشم المرانيف أبطال ، لبوسهم

من نسج داوود ، في الهيبة سراويل

يمشون مشى الجبال الزهر يعصمهم

هضرب إذا ورد السود التنايل

لا يفرحون إذا نالت رماحهم

قوما ، وليسوا مجازيماً إذا نيلوا

لا يقع الطعن إلا في نجورهم

وما إن لهم من حياض الموت تنال

(١) شرح بانت سعاد : ص ٨٦

ثم يستدرك في قصيدة أخرى ما فاتته من مدح الانصار ، ولهم
فضل النصر والمؤاخاة والإيثارة على أنفسهم (١) :

من سرته كرم الحياة فلم يذل

في مقنّب من صالح الانصار

ورثوا المكارم كابراً عن كابر

إن الخيار هم بنو الاختيار

المكرهين السهمى بأذرع

كسوالف الهندي ، غير قصار

الباذلين نفوسهم لتبليهم

يوم الهياج وسطوة الجبار

يتطهرون كأنه نسك لهم

بدماء من علقوا من الكفار

قوم إذا هوت النجوم فإنهم

للطارقين القارلين مقار

ويجمع حسان في مدحه بين الانصار والمهاجرين ، فهم لمخوة ،

(١) في الأدب الاسلامي والاموي ص ٣٥

يقول في رده على البرقان بن بدر (١) :

إن الذوائب من فخر وإخوتهم
 قد يبتغوا سنة للناس تدفع
 قوم إذا حاربوا ضروا عدوم
 أو حاولوا الدفع في أشياءهم نفعوا
 إن كان في الناس سباقون قبلهم
 فكل سبق لأدنى سبقهم تبع
 أضعفُ ذكرت في الرعي صفتهم
 لا يبخلون ، ولا يرديم الطمع
 أعطوا نبي الهدى والبر طاعتهم
 فما وني نصرهم عنه ، وما نزعوا
 إن قال: سيروا أجدوا السبيل جدتهم
 أو قال: هوجوا غلبنا ساعة ، ربعوا
 أكرم بقوم رسول الله قائدهم
 إذا تفرقت الأهواء والشيع
 فإنهم أفضل الأحياء كلهم
 إن جئت بالناس جد الفول ، أو سمعوا

(٢) ديوان حسان ص ٢٣٨

٣ — هجاء المشركين ردأ على هجائهم : تجهل المسلمون هجاء
المشركين أول الأمر ، فلما تمادوا ، وصار السكوت عنهم قد يفسر بالهجو
عن إلخامهم ، تصدى لهم شعراء الأنصار ، يقول حسان ردأ على
أبي سفيان حين هجا النبي (١) :

أبلغ أبا سفيان أن محمدا

هو الغنم ذوالاننان ، لا الواحد الوخذ

وأبلغ أبا سفيان عنى رسالة

فمالك من إصدار عزم ، ولا ورد

وأن سقام المجد من آل هاشم

بنو ابنة مخزوم ، والدك العبد

وما ولدت أفناء زهرة منكم

كريماً ، ولم يقرب عجائزك المجد

وكت دعياً نيط في آل هاشم

كانيط خلف الراكب للقدح الفرد

وإن امرأ كانت سمية أمه

وسمراء ، مغلوب إذا باغ الجهد

وهو هجاء بالنسب ، أفاد فيه حسان من مثالب عرقة لياها

(١) الديوان ص ١١٨

أبو بكر ، كما تصححه الرسول ، فكان ذلك موجها لقريش .
ولحسان أيضا مزية رائعة في الرد على أبي سفيان ، وهي التي
دعا له الرسول بالجنة مرتين حين سمع أبياتهما ، وفيها أنهض بيت قاتله
العرب (١) :

ألا أبلغ أبا سفيان عفى
فأنت بحرفي نخب هواء
هجوت محمدا فأجبت عنه
وعند الله في ذلك الجزاء
أتهجره ولست له بكف
فشركا لحيدركا الفساد
فإما تشقن بنو أوى
جذيمة ، إن قنهم شفاه
وفي هجاء قريش يقول عبدالله بن الحارث بن عدي (٢) :
واتلك قريش تجحد الله حقه
كما جحدت عاد ومدين والحجر
فإن أنا لم أبرق فلا يسعني
من الأرض بر ذو فضاء ولا بحر

(١) ديوان حسان ص ٧١ (٢) نظرات في الشعر الإسلامي ص ٣٢

بأرض بها عبد الإله محمد

أبلغ ما في النفس إذ بلغ النقر

(٤) حرب نفسية ضد المشركين : عرف في الجاهلية وصدر

الإسلام مصطلح ويقتل عنه أو عنهم ، وقصد به ما يعرف حديثا
بالحرب النفسية أو الباردة ، كانت الشعاع يرسل في آياتة نوحا من
التهديد والإنذار ، حين يبالغ في وصف القوة والاستعداد حتى يخيف
الاعداء فيتراجعون عن الحرب ، يقول معبد الخزاعي يخوف أباسفيان
ابن حرب ، ويخذه عن الرسول :

كادت تهد من الاصوات راحتي

لذ سالت الأرض بالجرد الأبايل (١)

تردى بأسد كرام لا تنابلة

عهد اللقاء ، ولا ميل معازيل

فظلت أعدواظن الأرض مائلة

لما سموا برئيس غير مخذول

(١) الأدب في عصر النبوة والراشدين : ص ٢٥٩ ، الجرد : الخيل ،

الأبايل : الجماعات ، تردى : تسرع ، تنابلة : قصار ، ميل : بغير

رماح ، معازيل : جبيناء ، تخطمطت : اهتزت .

فقلت ويل ابن حرب من لقائكم
 إذا تغلظت البطحاء بالخيل (١)
 من جيش أحد لا وخش تنابة
 وليس يوصف ما أئذرت بالقيط
 ● ويقول شداد بن عارض الجشمي يخوف أهل الطائف: (٢)
 لا تقصروا اللات إن الله مهلكها
 وكيف نصركم من ليس ينتصر
 تلك التي حرقه بالنار فاشتعلت
 ولم يقاتل لدى أحجارها هدر
 إن الرسول متى ينزل بساحتكم
 يظعن ، وليس بها من أهلها بشر
 ● وكعب بن مالك يذكر بدرأ ويهدد المشركين: (٣)
 رسول الله يقدمنا بأمر
 من أمر الله أحكم بالقضاء
 فما ظفرت فوارسكم ببدر
 وما رجعوا إليكم بالسواء

(١) تغلظت: اهتزت وشخ: السفلة الرجاج ، القويل: القول ،
 أى: ليس وصفي خيالا .

(٢) المرجع السابق: ص ٢٥٧ (٣) نفسه: ٢٥١

فلا تعجل أبا مصفيات وارقب
 جياذ النخيل تطلع من كداء
 بنصر الله ، روح القدس فيها
 وميكال ، فيا طيب اللقاء
 ومن أقوى ما قاله حسان في تهديد قريش وتخويلها أبياته
 في الحمزية قبيل فتح مكة: (١)
 عدمنا خيلنا إن لم تروها
 تثير النقع ، موعدها كداء
 يبارين الاسنة مصفيات
 على أكنافها الأسل الظماء
 تظل جياذنا متمطرات
 تلطمهن بالخر النساء
 فيما تعرضوا عنا اعتمرنا
 وكان الفتح وانكشف الغطاء
 وإلا فاصبروا للجلاد يوم
 يدين الله فيه من يشاء

(١) الديوان : ص ٧٣ ، مصفيات : منحرفات للطن ، الأسل :
 الرماح ، متمطرات : تخرج عن الجاعة لسرعتهما ، تلطمهن بالخر :
 يضربن الخيل بخمرهن لردّها .

وقال الله قد يسرتُ جنودا
 هم الانصار عرضتها اللقاء
 لنا في كل يوم من بعد
 قتال أو سياب أو هجاء
 فنسبحكم بالقواني من هجانا
 ونضرب حين تختلط الدماء

(هـ) وصف الممارك والسلاج وبلاء المجاهدين : لم تكن الممارك
 التي خاضها المسلمون - خاصة في الفتوحات على نفس المستوى المحدود
 البسيط الذي كانت عليه معارك الجاهلية ، وإنما تنوعت الأسلحة
 وكثرت العدد والآلات ، ومع ذلك ظل المقاتل المسلم على فروسيته
 وشجاعته وإقدامه ، فما أروعته كثرة الجيوش ، ولا أفزعته الأسلحة
 التي لم يعهدها ، وظل الشعر على عهده في متابعة الأحداث ، فوصف
 الممارك بدقة متناهية وذكر الأسلحة لدى الأعداء ، ولدى المسلمين ،
 وتجهيزاتهم ، بدءا من معارك الإسلام الأولى إلى الفتوحات ، وحتى
 فتنه عثمان ، يقول كعب بن مالك رداً على هبيرة بن وهب (١) :

نجد لا تبقى علينا قبيلة
 من الناس إلا أن يهابوا ويفظعوا

(١) دراسات في أدب ونصوص العصر الإسلامي : ص ١٩٢

وفينا رسول الله نذبح أمره
 إذا قال فينا القول ، لا تطلع
 نساوره فيما نريد ، وقصرنا
 إذا ما انتهى أنا نطيع ونسمع
 وقال رسول الله لما بدوا لنا :
 ذروا عنكم هول المفيات وإطعموا
 وكونوا كمن يشرى الحياة تقربا (١)
 إلى ملك يحيا لديه ويرجع
 فسرنا إليهم جهرة في رحالهم
 ضحايا ، عايضا البيض لا تنخسع
 بالمومة فيها السُّخُور والقنا
 إذا ضربوا أقدامها لا تورع
 فجئنا إلى موج من البحر وسطه
 أحابيش منهم حاسر ومقنع

(١) يشرى : يبيع ، ضحايا : أضغیر ضحى ، البيض : بفتح الباء :
 السيوف ، وبكسر ها : الخوذ ، تنخسع : تضعف ، مدمومة : كذبية ،
 السُّخُور : لباس كالدرع ، تورع : تكف . أحابيش : نسبة إلى جبل
 حبشى ، وهم القورشيون ، أهية : أشراف عتادرن .

ثلاثة آلاف ونمى نصية

ثلاث مئين إن كثرنا وأربع (١)

نفاورهم ، نهمى المنية بيننا

نشارهم حوض المغايا ونشرج

نهادى قسى النبع فينا وفيهم

وما هو إلا اليربى المقطع

ونخيل تراها بالقضاء كأنها

جراد صبا في قرة يتربع

فلم تلاقينا ودارت بنا الرعى

وليس لأمر حمته الله مدفع

ضربناهم حتى تركنا سراهم

كأنهم بالقاع خشب مصرج

وراحوا سراعا موجفين كأنهم

جهاهم هراقت ماءه الريح مقلع

ورحما وأخرنا بطاء كأننا

أسود على لحم بديشة ظلع

(١) نفاورهم : نغير هاليهم ، نشارهم : نشارهم ، النبع : شجر

تصنع منه القسى . اليربى : أرتار من يثرب ، صبا : ربح شرقية باردة .

قرة : برد ، يتربع : يحمى ، يذهب : مطروح على الأرض ،

موجفين : مصرهين ، جهاهم : هراقت : أفرغت . بديشة :

هو وضع . ظلع : ثميل الخطر .

ونحن أناس لا نرى القتل سبة
على كل من يحمي الزمار ويمسح

شددنا بحول الله والأمر شدة
عليكم ، وأطراف الأسمنة شرع
عمدنا إلى أهل اللواء ، ومن يطر
بذكر اللواء فهو في الحسد أسرع
فحانوا وقد أعطوا يدا وأخذوا (١)

أبي الله إلا أمره ، وهو أصنع
وفي آياته التالية ، يضيف دكعب ، إلى ما عرف من أسلحة مادية
سلاحاً مغفورياً جديداً أمده به الإسلام رجالاته ، هو سلاح التقوى ،
حين يبيع المجاهد نفسه إلى ربه كي ينصر دين الله ، يقول في موقعة
الحنديق (٢) :

دربوا يضرب المغلبن فأسلموا
مبهجات أنفسهم لرب المشرق
في عصبية نصر الإله فلبيه
٣٣ ، وكأف بعبد ذاك مرفق

-
- (١) حانوا : ماتوا وهي من الحين ، أعطوا يدا : استسلموا .
(٢) شعر عصر صدر الإسلام : ص ٦٠ ، دربوا : من التدريب
المعلمين : المتميزين . سابعة : دروع كاملة . النهي الغدير . المتفرق :
الرائق السيلان .

في كل سابعة تدخل فصولها
 كالنهي هبت ريحه المتفرق
 نصل السيوف إذا قصرن بخطونا
 قدما ولاحقها إذا لم تلحق
 فترى الجاهل ضاحيا هاما (١)
 بلته الألف كأنها لم تخلق
 وزيد الأعداء كل مقاص
 ورد ، ومجول القرائم أبلق
 تردى بفرسان كأن كانتهم
 عهد الهياج أسود طل ملحق
 أسر الإله يربطها لعدوه
 في الحرب ، إن الله خير موفق
 لتكرن غيظا للعدو وحيطا
 للدار ، إن دافعت خيول النزع

(١) ضاحيا : راضيا ظاهرا . بله : وكذلك ، مقاص : جواد طريل
 القرائم . ورد : أشقر . مجول : في قرائمه بياض . تردى : تسرع .
 ملحق : ذلق وطين من الطل .
 ميطا : حماية وإحاطة .

ويهيئنا الله العزيز بقوة
منه ، وصدق الصديق ساعة نلتقي
ونطيع أمر نبيينا وننجيه
ولذا دعا لكرمه ، لم نسحق
وفي يوم اليامة — إحدى معارك الردة — على عهد أبي بكر
الصديق ، يصف دضر ابن الأذور ، لقاء المسلمين باتباع سجاج
بن الحارث ومسيحة الكذاب : (١)

ولو سألت عما جفوب لاخبرت
حشية سألت عثرها وملمم
وسال بفرع الواد حتى ترقرت
حجارتها ففها من القوم الدم
حشية لا تقى الرياح مكانها
ولا النبل ، إلا المشرق المصمم
فإن تبغى الكفار غير مليمة
جنوب ، فإن تابع الدين مسلم
أجهاد إذ كان الجهاد قضية
ولله بالمرء المجاهد أهل

(١) نظرات في الشعر الاسلامي والاموي : ص ٤٤

ولم يفك الشاعر المسلم أن يشير إلى الفيلة التي يقذفها الفرس أمام
الجيش فتفزع الخيول ، في القادسية حضر عدد كبير من الشعراء
ومهمهم ربيعة بن مقروم الضبي : (١) الذي ذكر الجاحظ أبياته عن
الفيل في كتاب الحيوان ، يقول :

ودعوا نزال فمكنت أول نازل

وعلام أرضكبه إذا لم أنزل

ودخلت أبهة الملوك عليهم

ولشر قول المرء ما لم يفعل

وشهدت معركة الفيل وحولها

أبناء فارس يعضها كالأعبل (٢)

متسربلي حلق الحديد كأنهم

جرب مقارفة عذبة مهمل

وفي نفس المعركة — القادسية — لا يكتفى الشاعر قيس بن

المكشوح المرادي ، الذي قتل « رستم » قائد الفرس ، لا يكتفى بوصف

المعركة وإنما يبدأ من أول الرحلة (٣) :

(١) المرجع السابق : ص ٥٨ — كذلك : العصر الإسلامي : ص ٦٤

(٢) البيضا : الخوذ ، الأعبل : جحر أبيض ، جرب : إبل مصابة

بالجرب ، مقارفة : مريضة بالقرص ، وهو داء يقتل الإبل ، عذبة :

طلاء للجرب ، مهمل : الذي يهمل الإبل .

(٣) العصر الإسلامي : ص ٦٣ . تردى : تسرع .

جانب الخيل من صنعاء تردى
بكل مدحج كاليت مسامى
إلى وادى القرى فديار كلب
إلى اليرموك قلوب الشـآمى
وجئنا القادسية بعد شهر
مسومة ، دوابرها دوامى^(١)
فناهضنا هنالك جمع كسرى
وأبناء المرازبة الكرام
فلمسا أن رأيت الخيل جالت
قصدت لموقف الملك الهمام
فأضرب رأسه فهوى صريماً
بسيف لا أفل ولا كهام

٦ — الإقدام على الجهاد والفرج بالشهادة : لم يسكن حرص
المسلمين على التسابق للجهاد والاشتراك فى كل المعارك دافعه تحقيق
النصر على الأعداء فحسب ، وإنما لاحت أمامهم أهداف عدة ، جميعها

(١) مسومة : بها علامة ، دوابر : عراقيب ، دوامى : ماطخة
بالدم ، المرازبة : رؤساء الفرس ، أفل ، مثلم ، كهام : كليل .

تتصف بالسمو والعبالة ، فنشر دين الله ، والإطاحة بعروش الكفر
والشرك ، هي الغاية القصوى ، ولتسليما يسمى الجهاد إلى النصر ،
لا يمنعه من ذلك حرص على الحياة ، لأن من غاياته أيضا الفوز
بالشهادة ، وهل أهل مقاما من جنة الخلد يقيم بها الشهداء أحياء عند
ربهم يرزقون ، من هنا كان تراهم على الذهاب للمعركة ، وألم من
تمنعه حوائل عن الاشتراك ، ومن هنا كان فرحهم بالشهادة وطلبهم
لإياها ، وكان رضاهم بكل ما يلاقون في الميدان من أعدائهم ، أرسل
النبي ﷺ وفدا لبعض القبائل ليقنعهم في الدين ، لكنهم غدروا
بالوفد ، وأعدوا لهاب رئيسه وهو : دحبيب بن عدي ، فقال : (١)

إلى الله أشكو فربتي ثم كربتي

وما أُرصد إلا حراب لي عهد مصرعي

فذا المرش صبرتي هلى ما يراد بي

فقد بضغوا لحى وقد ياس مطمعي

وقد خيروني الكفر ، والموت دونه

وقد هملت عيناى من غير مجرع

فوالله ما أرجو إذا مت مسلما

على أى جنب كان في الله مصرعي

(١) الأدب في عصر النبوة والراشدين ص ٣٤٠

واسع بمجد العدو تنحشما
ولا يهزعا ، إني إلى الله مرجعي

واستمع إلى « بشر بن ربيعة الخثعمي » يصور تسابق المجاهدين ،
وقد تمنوا لو أن لهم أجنحة فيطربون إلى الميدان (١) :

تذكر - هداك الله - وقع سيوفنا
بباب قديس ، والمكتر عسير
عشية ودّ القوم لو أن بعضهم
يعار جناحي طائر فيطير
إذا ما فرغنا من قراع كتيبة
دانقنا لأخرى كالجمال تسير

ويشبهه « البزيق بن عياض الهذلي » نفسه بالجدى الكبير المربوط
في موضعه لا حيلة له ، وكان كبر سنه قد منهه من مرافقة أبنائه إلى
الميدان (٢) :

-
- (١) المعصر الإسلامي ص ٦٣
(٢) السابق ص ٥٦ . أملاح : اسم مكان ، اليمر : الجدى الكبير ،
خلافهم : بعدهم . العتر : شجر له أوراق صغيرة .

أسائل عنهم كلما جاء راكب
مقبلا بأملاج كما ربط اليعر
فأ كنت أخشى أن أقيم خلافهم
بسته أيبسات كما نبات العتر

ومن أعجب ما حدث في موقعة القادسية سنة ١٠٠ هـ ، كان
شرايا للخمر حتى أقيم عليه الخلد مرات ، ثم حبسه سعد بن أبي وقاص ،
بأمر الخليفة دحيم بن الخطاب ، وشابت معركة القادسية فاشتعل حماسا
وهو الفارس المقدام ، ورجا دسعدا ، أن يطلقه ليسهم في شرف
الجهاد ، لكنه أبى ، فأنجحه لزوجة «سعد» وتبنى أن تطلقه يوما وتعيده
فرسا تسمى البلقاء ولما عهد أن يرجع في الأنجر فيود لقيده ، فأبت ،
واستعاضها بأبيات حليفة تعبر عن ندمه ورغبته في التوبة : (١)

كفى حزنا أن تروني الخيل بالثقا
وأترك مشدودا على وثاقها
حينما عن الحرب العوان وقد بدت
وأعمال غيري يوم ذاك العواليا
ولله عهد ، لا أخيس بعهد
لئن فرجت ، أن لا أزور الحوايا

(٢) نظرات في الشعر الإسلامي والأدوى : ص ٥٦

فرأيت له زوجة دسعد ، وأطلقته ، فحمل على الأعداء ببسالة
أدمشت المحاربين حتى ظنوه مأسكا ، وقال دسعد ، دالطن طعن أبي محجن
والعدو عدو البلقاء ، ولولا محبس أبي محجن لقلت : هذا أبو محجن
وهذه البلقاء . وانتهى القتال في منتصف الليل فعاد لقيده وهو
يقول : (١)

لقد علمت ثقيف خير خير
بأننا نحن أكرمهم سيوفا
وإنما رفدكم في كل يوم
فإن جحدرا فصل بهم عربفا
وليلة قارس لم يشعروا بي
ولم أكره لمخرجي الزحوفا
فإن أحبس فقد عرفوا بلائي
وإن أطلق أجزعهم حنوفا

و د عبد الله بن رواحة ، أحد فرسان الشعر الثلاثة في المدينة
يتجهز لغزوة مؤنة ، ويدهو له مودعوه بالعودة سالما فيرد :

(١) نظرات في الشعر الإسلامي والاموي : ص ٥٦

لكنني أسأل الرحمن مغفرة
 وضربة ذات فرغ تقذف الوبدا (١)
 أو طعنة بيدي حران ممهزة
 بحربة تنفذ الأحشاء والكبد
 حتى يقال إذا مرتوا على جدتي
 يا أرشد الله من غاز وقد رشدا
 ويستغفره أهل المهادة ، فيحصد فرسه بالراحة من الأسفار ،
 فقه هوم على الرحلة الأخيرة إلى الجنة الرضوان :
 إذا أدتني وحلات وحل
 مسيرة أربع بمسد الحساء
 فشأنك أهدم وخلاك ذم
 ولا أرجع إلى أهل ورائي
 وجاء المسلمون وغادروني
 بأرض الشام مشتهى الشواء
 وفي المعركة استشهد حامل اللواء — د زيد بن حارثة ، —

(١) شعر عاصر صدر الإسلام : ص ٦٩ . ذات فرغ : واسمة عميقة .
 الوبد : الرغبة ، وهو يقصد دمه .

فعله « جعفر بن أبي طالب » ، واستشهد فحمله « عبد الله بن رواحة »
وانطلق يردد وهو يرى بعيني "قلبه منازل الشهداء في الجنة :

أقسمت يا نفس لتنزله
لتنزله أو لتسكر منه
قد طال ما قد كنت مطمئنه
جعفر ما أطيب ريح الجنة

ويستجيب الله لرغبة القلب المؤمن التقى ، ويفوز بالشهادة ، لقد
كان عدد الروم ضعف عدد المسلمين في ذلك اليوم خمسين مرة .

٧ — الفخر بتأييد الدين والانصار لدعوة الإسلام : رغم أن
الفخر عرض شهري قديم ، لم يستحدثه الشعراء المسلمون ، إلا أن
الإسلام قد أضفى عليه من السمات ما أكسبه جده ، فجعله يخالف الفخر
الجاهلي كل المخالفة ، لقد صار الزهو إعلام كلمة الله ، وموضع
الفخر هو النود عن الإسلام ، ومنز النعمالي والاعتداد يمكن في طاعة
الرسول والاعتداد به ومناصرة ، ثم يأتي الفخر بالانتصار في القتال
على أعداء الله ، ولم تغل بعض مواقف الفخر من ذكر الكباء والاجداد ،
ولكنه يختلف عن ذكر الجاهلية ، إنه لا يفخر بهم من حيث الأصل
والحكمة والحسب والنسب ، وإنما بسبب أعمال بطولية كشاهرة الله
ورسوله وحفظ الدين وحسن البلاء في الحرب . وأول ما كان من فخر

لإسلامي كان وهو الأنصار بما قدموا من حماية للدين ، ولإيواء
للمهاجرين ، وتأيد ونصر للنبي الكريم ، يقول حسان (١) :

منعنا بها خير البرية كلها
إماما ووقرنا الكتاب المنزل
نصرنا وآوينا وقوم ضربنا
- له - بالسيوف ، ميل من كان أميلا
فإن يأتنا أو يلقنا عن ههنا
يجدد عندنا مشوى كرميا ومريلا

وما أكثر تفاخر حسان - وحق له الفخر - أليس من الأنصار ،
أليس شاعر الرسول ؟ يقول تياها (٢) :

قومي الدين هم آوا نبيهم
وصدقوه ، وأهل الأرض كفار
إلا خصائص أقوام مهم سلف
للمسلمين مع الأنصار أنصار
مستبشرين بقسم الله ، قولهم
لما أنعم كريم الأصل مختار

(٢) الديوان ص ٣٨٨

(١) ديوان حسان ص ٢٧٦

أهلا وسهلا ، ففى أمن وفق سعة
 نعم النبى ونعم القسم والجار
 فأنزلوه بدار لا يخاف بها
 من كانت جارهم ، دارا هى الدار
 وقاسموا بها الاموال إذ قدموا
 مهاجرين ، وقسم الجاحد النار

ثم بأتى الفخر بالشجاعة والانتصار ؛ فى دنهاوند ، يتباهى
 د هرو بن زيد الحليل الطائى ، ويتمنى لو رآته زوجه باسملا شجاعا
 خيره يتاب رغم قوة العدو وبأسه (١):

الأطرق رحلى ، وقد نام صحبتي
 بياوان شيرين المزعرف ، خلتي
 ولو شهدت يومى (جلولاء) حربنا
 ويوم نهارند الممول استمات
 إذن لرات ضرب اسرى غير خامل
 يجد بطعن أروج غير مصلت

(١) الأدب فى عصر النبوة والراشدين ص ٣١١

ولما دعوا : يا عروة بن مهران
 ضربت جموع الفرس حتى تولت
 وكم من عدو أشوس متمرد
 عليه بجبلى — فى الهياج — أطأت
 وكم كربة فرجتها وكريمة
 شهدت لها أزدى إلى أن تولت
 وكم فى سجل البطولة الإسلامية من مجال للفخر والازدهاء ، فى
 « طاروس » — بأطراف فارس — يتعالى البطل بإخوانه الأبطال ،
 ويصفق الشعر للبسالة يقول د خليف بن منذر ، (١) :
 بطاروس ناهبنا الملوك وخيلنا
 عشية شهرلك علون الرراميا
 أطاحت جموع الفرس من رأس حائق
 تراه كموار السحاب مناغيا
 فلا يبعدن الله قوما تتابعوا
 فقد خضعوا يوم اللقاء العواليا
 وفى (واج روذ) يهمنان ، ينكل المسلمون بقائد الفرس (موتا)

(١) المرجع نفسه ص ٣٠٧

ويتمزج الفخر بالنفس مع الفخر بالجماعة في شعر « نعيم بن مقرب » (١) :
 ولما أتانا أن موتا ورملطه
 بنى باسل ، جرّوا جنود الأماجم
 نهضنا إليهم بالحديد كأنما
 جهال تراءت من فروع الغلاسم
 صدمناهم في « واج روذ » بهمعنا
 غداة رميناهم بأحدى العظام
 فما صبروا في حومة الموت ساعة
 لحدّ الرماح والسيوف الصوارم
 أصبنا بها موتا ومن لف جمعه
 وفيها نهاب قسمة غير حاتم
 نبهناهم حتى أروا في شعابهم
 نقتلهم قتل الكلاب الجواحم
 ولا ضيق من الفخر بالتميلة ، والاعتزاز بالأصل ، وذكر الماضي
 التقليد ، ما دام الحاضر مشرفا ، وما دام مجال الفخر محدودا ، ومناطق
 الزهر جهادا في سبيل الله (٢) يقول نافع بن الأسود بن قلبية التميمي ،
 يفخر بهلاله في الفادسية وبتميم :

(١) المرجع السابق : ص ٣٠٨

(٢) نفس المرجع : ص ٣٠٥/٣٩٤

وقال القضاة من معد وغيرها
 تميمك أكفاء الملوكة الأعظم
 هم أهل عز ثابت وأرومة
 وهم من معد في الذرا والغلاصم
 وهم يضمنون المال للجار ما نوى
 وهم يطعمون القدر ضربة لازم
 وحين أتى الإسلام كانوا أئمة
 وبادوا معدا كلها بالجرائم
 إلى هجرة كانت منباء ورفعة
 لباقية فيهم وخير مراغم
 لجاءت بهم ضمن للكتائب نصرة
 فكانوا حماة الناس عند العظام
 فصفتوا لأهل الشرك ثم تكبكبوا
 وطاروا طيهم بالسيف الصوارم

(٨) الرثاء : والرثاء أيضا غرض قديم اكتسب في ظلال
 الإسلام ملامح جديدة ، وأدله الشعراء المسلمون بروح متألفة ،
 حوّلته إلى لون جديد عزيز ، مبدع مفخرة للشعر العربي في تاريخه
 الجاف العريق .

ولم تقتصر الإضافات الإسلامية في شعر الرثاء على اللغة والأسلوب
أول على المعاني والآفكار ، لقد شملت هــ ذين المجالين ثم تجاوزتهما
إلى المنطلق — أو نقطة البدء — الذي يصدر عنه الشاعر في رثائه ،
لم يعد الجوع المهلك ، والأسى المستبد ، بل صار الصبر الجليل
والاحتساب عند الله ، تحول الموت من فناء وانقراض إلى مرحلة
انتقال ، أصبح وسيلة لجوارح كريمة ، والوصول إلى جنة الخلد
ونعيم المغفرة .

وبعد أن كان القتل في الحرب عارا لا بد من التأثر فيه للقليل ،
أصبح استشهادا في سبيل الله يتسابق للفوز به جميع المجاهدين ، وكان
اللابد لشعر الرثاء أن يتغير في العهد الإسلامي ليستوعب تلك المعاني
السامية الرفيعة ، ومن هنا يمكن أن تعد الرثاء غرضا جديدا .

رثاء الرسول ﷺ : في تصوري أن وفاة الرسول الكريم
كانت حدثا جللا ، هز قلوب المسلمين وعقولهم ، كانت اختيارا سهوا
وقفوا أمامه حيارى جزعين ، ولعل البعض ظل واقعا تحت تأثير
المول أيما وشهورا ، ولذلك يصبح التعبير عن وقع الحدث في النفس
صعبا ، وتصوير تأثيره على الوجدان شاقا ، وهكذا يمكن لنا تفسير
قلة قصائد الرثاء التي صيغت بعد وفاته عليه السلام ، أو ضعف
مستواها الفني ، ومع ذلك فهناك عدد منها على مستوى جيد .
يقول حسبان (١) :

(١) الديوان : ص ٢٠٧

آليت حلقه بر غير ذى دشل
 منى آية بر غير إفتاد
 بالله ما حملت أنشى ولا وضعت
 مثل النبى رسول الرحمة الهادى
 ولا مشى فوق ظهر الأرض من أحد
 أو فى بذمة جار أو بهيماد
 من الذى كان نورا يستضاء به
 مبارك الأمر ذا حزم وإرشاد
 مصداقا للنبیین الالى سلفوا
 وأبذل الناس الدهووف للجادى
 خير البرية لانى كفت فى نهر
 حار ، فأصبحت مثل المفرد العادى
 وفى داليتہ ، الشافية يبدو حسان جازا هالعا ، قد حار ليه
 وأوشك أن يغيب رشفه ، وأظنهما من أوائل ما قاله فى رثائه عليه السلام (١) :
 جنبى يقبك الترب ، لحنى ، ليتنى
 غيبت قبلك فى بقیع الغرقـد

(١) الديوان ص ٢٠٨ ، غرقد : شجر صحراوى ذكى الرائحة

أقيم بعدك في المدينة بينهم
يا لطف نفسي ليتنى لم أولد
بأبي وأمي من شهدت وفاته
في يوم الاثنين ، النبي المهتدى
فظللت بعد وفاته متلذذا
يا ليتنى صبحت سم الأسود
أو حل أمر الله فينا عاجلا
في راحة من يومنا أو في غد
فتهرم ساعتها فتلقي طويلا
عضا ضرائبه كريم المحتد
فور أضاء على البرية كلها
من يُهد للنور المبارك يهد
صلى الإله ومن يحف بعرشه
والطيرون على المبارك أحمد

وله أبيات أخرى « رائية » وقصيدة « لامية » ، وأظننا لو تتبعنا
كل شعره واجدين الكثير ، ولكن تكفيها بعض الأمثلة .

رواه الشهداء : حين استشهد حمزة بن عبد المطلب - عم الرسول

• وكان ذلك بمؤامرة غادرة من هند بنت هنتبة ، وناه عدد كبير من أشقراء المسلمين ، فقد كان رضوان الله عليه حصناً للدين ، وسنداً للنبى ، وقوة للمسلمين ، كان كما سماه رسول الله : أسد الله ، ولذا عظمت الكارثة بفقدته واشتد الحزن ، إلا أن الروح المؤمنة ظلت هى الطابع المسيطر على ذلك الرثاء ، تقول أخته - صفية بنت عبد المطلب (١) :

دعاه إله الحق ذو العرش دعة
إلى جنة يحيا بها وسرور
فذلك ما كنا نرجى ونرجى
لحزة يوم الحشر حين مصير
فوالله لا أنساك ما هبت العسا
بكاء وحزنا محضرى ومسرى
على أسد الله الذى كان مدرها
يزود عن الإسلام كل كفور
• ويقول دكعب بن مالك ، فى رثاء دحزة ، (٢) :

أصيب المسلمون به جميعا
هناك وقد أصيب به الرسول

(١) الأدب فى عصر النبوة والراشدين ص ٢٦٢

(٢) المرجع نفسه ص ٢٦٢ ، ٢٦٤

هليك سلام ربك في جنات
مخالطها نعيم لا يزول

• وفي غزوة مؤتة استشهد عدد كبير من المجاهدين ، منهم دعيه الله
ابن رواحة وجعفر بن أبي طالب وزيد بن حارثة ، فرائهم كعب
ابن مالك (١) :

نام العميون ودمع عينك يهمل
سحاكما وكف الطيباب المخضل
في ليلة وردت على مهمومها
طورا أحسن وتارة أتمل
وكانت بين الجرائح والحشاشا
مما تأوي في شهاب مدخل
وجدوا على النفر الذين تتابعوا
يوما بمؤتة أسندوا لم يقلوا
صلى الإله عليهم من فتية
وسقى عظامهم الغمام المسبل

(١) الأدب في عصر النبوة والراشدين ص ٦٢

ولا ريب أن عظم المصائب في الشهداء ، حفز على رثاء الكثيرين
 لهم ، لقد نظم حسان أكثر من قصيدة يرثيهم بها ، منها (١) :
 تاو بنى ليل يثرب أعسر
 وهم إذا ما نوم القوم مسر
 لذكرى حبيب هيتجت لي هجرة
 سهوفا ، وأسباب البكاء التذكر
 بلاء وفقدان الحبيب بلية
 وكم من كريم يبتلى ثم يصبر
 رأيت خيار المؤمنين تواردوا
 شحوب ، وقد خافت فيمن يؤخر

غداة غدوا بالمؤمنين يقودهم
 إلى الموت ميمون النقيبة أزهـر
 أفر كنصل السيف من آل هاشم
 أبي إذا سيم الظلame يجسر
 فصار مع المستشهدين ثوابه
 جنان وملئت الحدائق أخضر

(١) الديوان ص ٢٢٣ ، شعوب : بفتح الشين : المنية .

وفي الغزوات المتلاحقة ، عبر الفتوح الإسلامية ، يسقط شهيداه
بجمولون ، فيد ثيم الشعر ، في معركة جوزجان ببلاد فارس يذكر
دا بن الغريزة النهشلي ، شهيداه المسلمين (١) :

سقى وزن السحاب إذا استهلت
مصارع فتية بالجوزجان
وما بي أن أكون جرعت إلا
حنين القلب للبرق اليماني
ورب أخ أصاب الموت قبل
بكيت ، ولو نعت له بكاني
دعاني دعوة والحيل تردى
فما أدري : أباسمي أم كنانى

وأحيانا يرثى الشاعر نفسه ، أو بعض نفسه ، لأنه قد يصاب
في إحدى المعارك ، فيقتل هضوا من جسمه ، وبشكل إيمان وتقوى يستقبل
الأمر في رضى ، ويحتسب ما ضاع منه عند الله ، يراه تضحية هينة
في سبيل نصره الدين ، وإعلاء كلمة التوحيد ، دعبد الله بن سبرة
الحلبسى ، وقد قطعت يده في معركة بارز فيها قائد الروم (٢) :

-
- (١) نظرات في الشعر الإسلامى والاموى : ص ٦٢
(٢) الأدب في عصر النبوة والراشدين ص ٣١٨ وأم جابر : كنه

ويل د أم جار ، خداة الروح فارقة
 أمون هلى به إذ بان فانقطعا
 ينفى يدي خذت منى مفارقة
 لم أستطع يوم «فلاطس» لها تبعها
 وما ضللت عليها أن أصحابها
 وقد حرصت هلى أن نستريح معا
 وقائل غاب عن شأني وقائلة
 هلا اجتنبت عدو الله إذ صرعا
 وكيف أتركه يسعى بمنصه
 نهرى وأعجز عنه بمد ما صنعا
 ما كان ذلك يوم الروح من خلقى
 ولو تقارب منى الموت فاكتمعا

يمشى إلى مستميت مثله بطل
 حتى إذا أمكننا سيفها قطعا
 اللئى يكن د ارطبون ، الروم قطعا
 فإن فيها بسم الله منتفعا

بئانتين وجرموزا أقيم به (١)

صدر القنائة إذا ما آنسوا فزعا

٩ — الحنين والاعتراب : رقد نشأ في رحاب الفتوح فرض
شعري جديد ، هو الحنين إلى الأهل والوطن ، والإحساس
بالغربة في البلاد التي سافروا إليها لفتحها ، أو التي أقاموا فيها بعد
الفتح ليسوا قواعد الدين . ويحموا ذماره ، وقد يسكن الحنين من
الأهل المقيمين في الوطن إلى ذويهم وأهناهم الذين سافروا للجهاد
والنزور ، وكلاهما وجهان للحنين الذي كابده العرب لأول مرة ، فالعربي
لم يتعود الأسفار البعيدة ، وحتى التجار الذين كانوا يسافرون للطلب
البضائع ، كانت رحلاتهم معروفة مألوفة إلى مشارف الشام واليمن ،
أما في الفتوح فقد شرقوا وغربوا وأيسروا وأيسروا ، رحلوا إلى
أقصى الأرض في كل اتجاه ، وربما قيل إن بكاء الاطلال كان لونا
من الحنين إلى الديار بسبب الرحلة بحثا عن الماء والسكنا ، لكن الأمر
جد مختلف ، فتنقل العربي داخل الجزيرة لا يشبه تنقله إلى بيئات
شديدة الاختلاف والتباين ، وتفصلها عن وطنه آلاف الفراسخ ،
وعند من البحار والأنهار .

كذا فإن بكاء الاطلال لم يلبث أن تحول إلى تقليد متكاف ، يخلو

(١) أم جاز : السكف ، فطاس : مكان الموقعة ، اكتنما : دها
وأحاط ، أرطبون : قائد الروم ، جرموز : طرف .

من الصدق ، ويفتقد للتجربة المعاناة ، بينما يصدر حنين الشاعر
الإسلامي من غربة حقيقية ، وإحساس بالبعد المكاني والزمني .
استمع إلى هذا الشاعر يستبد به الحنين فيتمخيل الحيام والمراجع ،
ويدق النظر ، وهو يعلم - يقينا - أن الرؤية مستحيلة ، لبعده المعافة
وكثرة الجواجز ، ولكنه ينظر عساه بهذا (١) :

أكرر طرفي نحو نجد ولاني
برغبي وإن لم يدرك الطرف أنظر
حنينا إلى أرض كأن تراها
إذا أمطرت عود ومسك وعذير
بلاد كأن الأفحوان بروضه
ونور الأفاحي وشئ برد بحبر
أحن إلى أرض الحجاز وحاجتي
خيام بنجد ، دونها الطرف بقصر
وما نظري من نحو نجد بنافع
أجل لا ، ولكني إلى ذاك أنظر
أفي كل يوم نظرة ثم عبرة
لعيذك مجرى ماها يتحدرو

(١) الأدب في عصر النبوة والراشدين : ص ٣١٣ ، لم يذكر اسم الشاعر

متى يستريح القلب : إما مجاوز
الحرب ، وإما نازح يقدح
وتهيج في كرى الحبيلة دموع شاعر آخر ، وقد يثنى من اللقاء ،
فيستروح الذنوب من ناحية الديار ، ويشكو غربة الروح بين قوم
لا يفهمون هذه ولا هو يفهمهم (١) :
أتبكي هل نجد ريتا ولن ترى
بغيتك ربا ما حبيت ولا نهجا
ولا مشرفا ما عمت أقدار وجرة
ولا واطئا من ترجم ثرى جقدا
ولا واجدا ربح الخوازي تسوقها
رياح الصبا تملو دكادك أو وهذا
تبدلت من ربا وجارات يديها
قرى نبطيات يسميني مرها
ألا أيها البرق الذي بات يرتقى
ويجلى دجى الظلام ، ذكرني نهجا

(١) المرجع السابق والصيغة .

وفي هذا المجال أيضا يبرز حنين آخر هو حنين الآباء والأهل في
الوطن لأبنائهم وذويهم الغزاة ، إن الخليل السعدي يشترك ولده شيبان
الذي خرج مع الجيش إلى فارس ويتذكر طفولته وسدبه عليه لكي
يترك مشاعره (١):

أيها سكني شيبان في كل ليلة
لقلبي من خوف الفراق وجيب
أشيبان ما أدراك أن رب ليلة
خيمتك فيهما والغفوق حبيب
فإن يك مفضنى أصبح اليوم زاويا
وغصنك من ماء الشباب رطيب
فإنى حنت ظهري خطوب تتابعت
فشي ضعيف في الرجال ديب
وكذلك دأمية بن الأسكر ، ، يحن إلى ابنة د كلاب ، الذي
رحل غازيا (٢):

أعاذل قد عدلت بغير قدر
ولا تدوين أعاذل ما ألقى

(١) نظرات في الشعر الإسلامي والأدوى ص ٤٨

(٢) تاريخ الشعر العربي ج ١ ص ٨٢

فاما كنت حاذلي فردى
 د كلابا ، لذ توجه للهرامق
 فى الفتيان فى هسر ويسر
 شديد الركن فى يوم التلاقى
 فلا والله ما باليت وجهى
 ولا شفقى عليك ولا اشتياق
 وإبقائى عليك إذا شئتونا
 وضحك تحت نحرى واعتناقى

ومن الحزين كذلك ما لم تفصح عنه الزوجة حياء وتعففا ، ولكن
 الزوج أشار إليه ، الفابرة الجعدى يقول لزوجته (١) :
 يا بنت تذكرنى بالله قاعدة
 والدمع ينهل من شأنيهما سبلا
 يا بنت عمى كتاب الله أخرجنى
 كرها ، وهل أمنعن الله ما فعلا
 ما كنت أعرج أو أعشى فيمذرنى
 أو ضارعا من ضنى لم يستطع حولا

(٢) الشعر والشعراء ١٧٩

(١٠) وصف البلاد الجديدة : ومن الأغراض الجديدة في الشعر

الإسلامي ما نطرق إليه الشعراء من وصف البلاد التي رأوها
في غزواتهم ، سواء من حيث طبيعتها أو مبانيها ومناظرها . فهذا
« زياد بن سفيظة » يصف الحير والخصوبة في الشام (١) :

وألقت إليه الشام أفلاذ بطنها

وعيشا خصيبا ما تمد ما ككه

أباح لنا ما بين شرق ومغرب

مواريث أعتاب بئتها قرامله

وكم مثقل لم يضطالع باحتماله

تحمل عينا عين شالت شوائله

لكن نافع بن الأسود بن قطبة « يفضل ريف الري لطيب

عيشه (٢) :

رضينا ريف الري والري بلدة

لها زينة من عيشها المتواتر

لها نشر في كل آخر ليلة

تذكر أعراس الملوك الأكاير

(٢، ١) الأدب في عصر النبوة والاشدين ٣١٤/٣١٥

وتجذب كنانس الروم بمعمارها المهيّب وبنائها الضخم وما فيها
من زخارف فنية تجذب نظر حارثة بن النضر (١) :

لله باليرموك قوم طمطحوها

أحساب عاق الروم بالأقدام

فتمطلت منهم كنانس زخرفت

بالشمام ذات فسافس ورخام

وفي « مرو » يرى الشاعر منظرا طريفا فلا يملك نفسه من التعجب
عنه في شعره ، إن بردها القارس ، وثالثها الذي يتساقط على أهلها قد
دفعهم الاحتياج بثياب غايظة ودس أيديهم في جيوبهم فبيدوا كالأسرى (٢) :

وأرى بمر الشاهجان تنكرت

أرض تنابع ثلجها المذرور

إذ لا ترى ذا برة مشهودة

إلا تفضال كأنه مقرر

كلتا يديه لا توأيل ثوبه

كل الشتاء ، كأنه مأسور

(١١) المعاني الإسلامية : كثيرة هي القيم الرفيعة والمعاني

الإسلامية السامية التي جاء بها الدين الحنيف فتأثر بها الشعراء وراحوا
يصوغونها شعرا ، ولو عرضنا نماذج لـ شكل معنى وقيمة ، اطال بنا

(٢ ، ١) المرجع السابق : ص ٣١٥

المقام ، لكن تكفي أمثلة قليلة دالة ، يقول حسان ، في العوحيذ
والجنة (١) :

فأنت إله الخلق ربى وخالق
بذلك ما عثرت في الناس أشهد
تعاليت رب الناس عن قول من دعا
سواك إلهاً أنت أعلى وأجد
لك الخلق والنعمة والأمر كله
فإياك نستهدى وإياك نعبد
لأن ثواب الله كل موحد
جنان من الفردوس فيها يخلد
وفي التقوى وبر الوالدين يقول « عبدة بن الطبيب » موصياً
بذية (٢) :

أوصيكم بتقى الإله فإنه
يعطي الرفائب من يشاء ويمنع
ويبر والدكم وطاعة أمره
لأن الأبر من البنين الأطوع

(١) ديوان حسان : ص ٣٣٨

(٢) الأدب في عصر النبوة : ص ٢٦٥

وفي التوبة والاستغفار يقول « المحجل السعدى » وكان في هجائه
للبرقان بن بدر قد تعرض لاستغفاره بحليمة كذبا (١) :
لقد ضل حلى في حليمة ضلة
سأعذب نفسى بعدها وأتوب
وأشهد ، والمستغفر الله أنفى
كذبت عليها ، والهجاء كذوب
الوفاء بالعهد : كعب بن زهير (٢) :

رحلت إلى قومى لأدعو جاههم
إلى أمر حزم أحكمته الجوامع
ليوفوا بما كانوا عليه تماقدوا
بخيف منى ، والله راء ومسامع
سأدعوهم جهدى إلى البر والتقى
وأمر العلا ما شايعتنى الأصابع
وانظر إلى أى مدى تغافلتم قيم الإسلام ، حتى يتوب السكينة
فادما مستغفرا ، يقول أبو عبيد القحطاني (٣) :

-
- (١) المرجع السابق : ص ٣٣٨
(٢) الأدب في عصر النبوة والراشدين : ص ٢٣١
(٣) المرجع السابق : ص ٢٦٦

أتوب إلى الله الرحيم فإنه
 غفر لذنوب المرء ما لم يعاود
 ولست إلى الصمباء يوما بمائد
 ولا تابع قول السفينة المعائد
 وكيف وقد أعطيت ربي موائدا
 أعود لها ؟ والله ذو العرش شاهد

الفرار بدين الله وإياه الضيم : د عبد الله بن الحارث بن قيس
 بين عدى ، وكان بين المهاجرين للعبشة في أول الدعوة (١) :
 يا راكبا بلعن عفى مغفلة
 من كان يرجو بلاغ الله والدين
 كل امرئ من هياذ الله مضطهد
 يبطئ مسكة مقهور ومفتون
 إنا وجدنا بلاد الله واسمة
 تنجى من الدل والخزاة والهنون
 فلا تقيموا على ذل الحياة وخز
 ي في الممات وهيب غير مأمن

(١) نظرات في الشعر الإسلامي والأموي : ص ٣١

إنا تبعنا رسول الله ، وأطعوا
قول النبي وقالوا الموازين

وفي الصبر على المسكاره والتوكل على الله نجد مثالا رائعا في شعر
عبد الله بن حذاف ، وكان مع طائفة من المجاهدين لحاصرهم المرتدون
في جهواش ، وأضرهم الجوع فصبروا واحتسبوا (١) :

أبلغ أبا بكر رسولا
وفتيان المدينة أجمعينا
فل لكم إلى قوم كرام
قعود في جهواش محضرينا
كأن دماءهم في كل فج
شعاع الشمس يغشى الناظرينا
توكلنا على الرحمن إنا
وجدنا الصبر المتوكلينا

وفي معنى التوكل أيضا والإيمان بالقدر ، وأن الله هو الرزاق
نجد من شعر كعب بن زهير (٢) :

(١) نظرات في الشعر الإسلامي والاموي : ص ٤٥

(٢) تاريخ الشعر العربي في العصر الإسلامي : ص ٣٧

وأعلم أن متى ما يأتني قدرى
فليس يحبسني شج ولا شفق
فلا تخاف عليهما الفقير وانتظري
ففضل الهدى بالغنى من عبده نثق
إن يفن ما عندنا فآله يرزقنا
ومن سوانا ، ولسنا نحن نرزق

قول الحق ، ولو أمام الخليفة صاحب السلطان ، لقد فتح الله على
المسلمين فاستولوا على أرمينية في عهد الخليفة دعثمان بن عفان ، فأعطى
الخمس لروان بن الحكم ، وهو في ذلك يخالف نهج الرسول وخليفته :
أبي بكر وعمر ، ويعلم صوت الشعر منتقدا مدافعا عن الحق ، يقول
عبد الرحمن بن الحنبل جليل الجاه ، للخليفة (١) :

أحاف بالله رب الأنام
ما ترك الله شيئا عسى
ولكن خلقت لنا فتنة
لكي نبتلي بك يا ربنا
فإن الأمتين قد بينا
منار طريق عليه الهدى

(١) نظرات في الشعر الإسلامي والأموي : ص ٦٥

فما أخذنا درهما غيلة
ولا جعلنا درهما في هوى
وأعطيت مروان خمس البلاد
فهيئات سميك من سمى

ويغتيال دشمنان ، ، وتمتد الخلافة د لعل ، — كرم الله وجهه —
لكن للفتنة أطل بوجهها، مثلة في معارضة قوية ضد على بقيادة أم المؤمنين
عائشة وطالحة والزبير، وتوزع ولاء المسلمين بين على وعائشة ، وفزع
الشعر عما يتوقع من صدام مساح بين الطائفتين ، وما في ذلك من هلاك
للأمة ودمار للدولة ، يقول د كعب بن جهمل التغلبي ، (١) :

أصبحت الأمة في أمر عجب
والملك محمود غدا لمن ظلم
فقلت قولا صادقا غير كذب
لأن غدا تملك أعلام العرب

وفي معركة الجبل حيث خرجت أم المؤمنين على رأس الجيش رغم
أن طالحة والزبير لم يحضرا نساءهما فانتقد المسلمون ذلك ، وعبر عن
رأيهم د جارية بن قدامة السعدي ، (٢) :

(١ ، ٢) المرجع السابق ص ٦٦/٦٥

صنتم حلائلكم وقدمتم أمكم
 هذا - لعمرك - قلة الإنصاف
 أمرت بحجر ذيولها في بيننا
 فهوت تشق اليد بالإيجاف
 غوضاً يقاتل دونها أبداؤها
 بالنبل والخطى والأسياف
 هتكت بطلحة والزبير ستورها
 هذا المخبر عنهما والسكاف

ويحمل مقاتل من مفسكر د على ، رضى الله عنه - مصحفا داعيا
 للسلام ، إلا أن الجند التابعين لعائشة قتلوه فترثيه أمه وهي توجب لأن
 أم المؤمنين ترى جماعتها تغفل فلا ترشدها (١) :

لاهم إلا مسلماً دعاهم
 ينلو كتاب الله لا يخشاهم
 وأمامهم قائمة ، تراهم
 يأتهمون الغنى ، لا تنههم
 قد خضعت من عاق لحامهم

ولا تمنع المنزلة الرفيعة لأم المؤمنين شاعراً مسلماً من تنبيهها إلى

(١) المرجع السابق ص ١٨

ما في الحرب من مخاطر على المسلمين فيخاطبها في إجلال (١) :

يا أمنا ، يا خير أم نعلم
أما ترين كم شجاع يكلم
وتحتل هامة والمعصم

وبعد مشاهد أليمة تنقضي موقعة الجبل ، لتبدأ وقائع فتنة أخرى
أقسى وأشدّ هولاً ، إنها حروب « على » ، رضى الله عنه لجند « معاوية »
الذي نازعه الخلافة ، ويتفرق المسلمون شيعاً وأحزاباً ، ويلجأ
« معاوية » إلى الإغراء ، لأنه يطلب من « أيمن بن خريم » قتال « على »
مقابل منحه فلسطين ، فيكتب إليه (٢) :

ولست مقاتلاً رجلاً يصل
على سلطان آخر من قریش
له سلطانه وعلى أئمة
مماذ الله من سفه وطيش
أقتل مسلماً في غير جرم
فليس بخافى ما عشت عيشى

(١) المرجع السابق ص ٦٨

(٢) المرجع السابق ص ٧٠

(١٢) القول : آثرت ألا أنبئ هذا العرض لنماذج من الشعر

الإسلامي دون الإشارة لبعض أمثلة من شعر النزل الذي نظم في الإسلام — في عهد النبوة والرشد — وقد لا تعد هذه النماذج غزلاً بالمعنى المفهوم، إذ هي مطالع لقصائد صيغت في أغراض أخرى، وهي بهذا الشكل مجرد متابعة لتقاليد شعرية جاهلية، كانت تروى من تمام الجودة والسبك في القصيدة أن تبدأ بالقول أو الأطلال، ثم إن هذه النماذج الغزالية لم تخرج في ألفاظها ومفانيها وصورها عما تعودته الشعراء في الجاهلية، ذلك لقرب ناظميها من العهد الجاهلي زمنياً، ولأن القول غرض جاهلي قديم ولم يطرأ بعد — من قيم وتقاليد الشعر الإسلامي — ما يخلع عليه سمات جديدة أو يكسبه طابعاً خاصاً، فذلك سوف يحدث بعد سنوات قلائل، في عصر بني أمية.

لنما قصدت من تقديم هذه النماذج أن أتبين أن الإسلام ورسوله لم يكن يمنع القول في القول أو يرفض إنشاده وسماعه وروايته، ما دام في حدود العفة، لا يحوى غشاً، أو ينتهك حرماً، أو يحوى إلى عرض، أو يتخدش حياء، يقول شاعر النبي — سنان بن ثابت — في مطلع قصيدته الحموية التي نظمها قبيل فتح مكة ورد فيها على أبي سفيان بهجوه وبتوعده، يقول: متغزلاً (١) :

هفت ذات الأصابع فالجواه

إلى هذراء منزلها خلاء

(١) الديوان : ص ٧١

ديار من بنى الحساس قفرو
 تعفيمها الرواس والسماء
 وكانت لا يزال بها أنيس
 خلال مروجها ، نعم وشاء
 فدرع هذا ، ولكن ما لطيف
 يورقني إذا ذهب الأشاء
 لشماء التي قد تيمته
 فليس لقلبه مدها شفاء
 كأن ضيئة من بيت رأس
 يسكون مزاجها عسل وماء
 على أنيابها ، أو طعم غض
 من التفاح هصره لجناء
 ولحسان أيضا في يوم أهدى جو ابن الزبيري (١) :
 منع النجوم بالاشاء هموم
 وخيال إذا تغور النجوم
 من حبيب أصاب قلبك مده
 سقم ، فهو داخل مكتوم

(١ ، ٢) الديوان : ص ٢٠٦/٨١

يا لقوم هل يقتل المرء مثلي
واهـن البطش والعظام مشوم
شأتها العطر والفراش ويعلوها
لجـين ولؤلؤ منظوم
لو يدب الحول من ولد الذر
عليها ، أئدبتها السكوم
● ولحسان كذلك من قسيمة في الغنم (١) :
زادت همومي فاء العين ينحدر
سحبا إذا غرقته حبرة درر
وجدأ بشعشاء ، إذ شعشاء بهكمة
حوراء لا دنس فيها ولا خور
دع عنك شعشاء إذ كانت مودتها
نورا ، وشر وصاله الواصل النزر
ويطول بنا الأصـر لو قـتـصينا كل المعطالع الغزلية عند حسان ،
فلننقل لمثال آخر هذه كمب بن زهير (٢) :

-
- (١) الديوان : ص ٢٠٦/٨١
(٢) دراسات في أدب ونصوص العصر الإسلامي : ص ٨٨

بانت سعاد فقابى اليوم مقبول
مقيم إثرها لم يجر مقبول
وما سعاد غداة البين إذ رحلوا
إلا أغن غصن الطرف مكحول
هيفاء مقبلة ، عجزاء مدبرة
لا يشتكى قصر منها ولا طول
تجلو عوارض ذى ظلم إذا ابتسمت
كانه مفول بالراح معلول
شجع بنى شيم من ماء بحنية
صاف بأبطح أضفى وهو مشمول
يا ويحها خلة لو أنها صدقت
موعودها، أو لو أن النصح مقبول
فما تدوم على حال تكون بها
كما تلون في أمواجها الفول
وما تمسك بالوصل الذى زعمت
إلا كما تمسك الماء الغرايل
فلا يفراك ما منت وما وعدت
إن الأمانى والأحلام تضليل

ونعتم هذه الأشعار الغزالية بقول عبدة بن الطبيب (١) :

هل حبل خولة بعد الحجر موصل

أم أنت عنم — بميد الدار مشغول

حلب خويلة في دار مجاورة

أهل المدائن ، فيها الديك والفيل

فخامر القلب من ترجيع ذكرتها

رس لطيف ورهن منك مكبول

ولأحبة أيام تذكرها

وللعوى — قبل يرم البين — تأويل

بقي أن نرصد حول الشعر الإسلامي عددا من الملاحظات .

(١) في الشعر الإسلامي والأدوى ص ٥١

سادسا : ملاحظات نقدية فنية حول الشعر الإسلامي

ليس من المنطقي أن نتوقع انقلابا كاملا ، وتغييرا جذريا في الشعر العربي عشية ظهور الإسلام ، وإنما هو تطور محدود النطاق في البداية (١)

ذلك لأن التقاليد الفنية ، والقيم الشعرية ، تسكتسب عبر أجيال وأجيال ، وهي تتأثر ببطء ، وتغير في تدرج ، ومهل . فلا غرابة إذن أن نجد استمرار بعض الطوابع والسمات الجاهلية في الشعر الإسلامي ، خاصة وأن اللغة بقيت كما هي في جوهرها رغم بعض التطور ، وكذا بقي النسق الموسيقي من عروض وقافية على حاله ، وإلى هذا وذلك فإن اللمبة الجغرافية ظلت كما هي عند السكثرة من الشعراء الذين أقاموا في الجزيرة ولم يرافقوا الهيرش .

إن التغيير الديني والأخلاقي والاجتماعي حق لا مرأ فيه غير أن تأثيره على فن الشعر يتم بأناة وريث ، وتظهر نتائجه على مدى زمني طويل ، والمصورة العامة للشعر في صدر الإسلام تقوم على حقيقة حضارية معروفة ، هي أن هناك بالضرورة تداخلا بين فترات التاريخ

(١) رصدت هذه الملاحظات على الشعر الإسلامي فقط ، فهي لا تتناول شعر المشركين في مكة كما لا تتعرض لشعر البادية الذي بقي على حالة الجاهلية ، ولم يتأثر بالإسلام بعد في عهد النجوة والراشدين .

الحلامة ، وأنة لا يمكن أن يكون هناك خط فاصل بين فترة والنسب
تقليها ، وبخاصة حين يتصل الأمر بمقومات نفسية بعيدة الغور
في نفوس أصحابها ، أو بقيم فنية أصبحت تقاليد موروثة لا يمكن
الخلاص منها فجأة ، أو الاهتداء إلى غيرها من قيم جديدة ، (١) :

إن التغيير العادي في مظاهر الحياة اليومية ، من سلوك وملبس
وما كل ومشرب ، كل ذلك يتسم بيسر وسهولة ، ولا يجد مقاومة تذكر ،
بل ربما وجد الترحيب والتشجيع ولكنه الأمر يختلف في مجال الفن
والادب ، لأنه يتصل بروح الأمة وهويتها ، مثل العقيدة تماماً -
فليس ميسورا أن يتخلى الشاعر عن أسلوبه الفنى ، ويتخذ آخر ، ولا
ينتقل من قالب موسيقى إلى سواه ، ولكنه يمزج بين هذا وذاك ،
ويجمع بعض الجديد إلى شيء من القديم .

وإذا كان الشعر الجاهلى يسامه الخاصة وأغراضه النافذة فقد توارى
بعض الشيء ، وخفت صوته قليلا ، فلم يبق بفسح المجال لشعر إسلامى
أكثر حيوية وملامة لما حدث من تغيير هائل في حياة العرب .

ونحن نلاحظ التجدد في الشعر الإسلامى واضحا بدينا من خلال
المعاني والأفكار ، لأنها استمدت من النيم والمثل النبى يؤمن بها الناس ،
وهى قد تغيرت تغيرا جذريا بعد الإسلام ، ولذا نرى الشعراء المسلمين
يرددون معاني وأفكارا تختلف وتختلف عما كان يتناوله الشعراء

(١) في الشعر الإسلامى والاموى : ص ٦٧

في الجاهلية ، حسب الافراض والموضوعات .

وكذلك تقيين الحدائة والجدّة فيما طرقة الشعراء بعد الإسلام من مجالات وآفاق لم تكن معروفة قط أيام الجاهلية ، وهو ما يسمى بالافراض الجديدة ، وحتى القديم الذي ظل مستقرا طبعه الإسلام بطابعه ، فأكسبه رونقا وبهاء .

وتعرضت لغة الشعر في العهد الإسلامي - متأثرة بالقرآن والحديث - لتطور ملحوظ ، وهو ما لفت نظر النقاد والدارسين المتشبهين بالشعر الجاهلي والمجهين به ، فهدتوا ذلك التطور ضمنا . أما في البناء الفني ، أو نسق القصيدة فقد أضاف له شعراء الإسلام لمسات قليلة ، في حين بقي الإطار الموسيقي على ما كان عليه من وزن وقافية .

ولنفترض الآن مظاهر التجديد في كل مجال على حدة :

أولا : المعاني والأفكار : لا ريب أن الشعر الإسلامي قد جمع بين بعض المعاني الجاهلية بما لا يتعارض وقيم الإسلام ومبادئه ، وبين معاني إسلامية مستحدثة ، وإذا كان بعض الدارسين يرى أن الشعراء المسلمين لم يوفقوا تماما في تمثيل قيم الإسلام بمعانيه ، ولم ينجحوا نجاحا كاملا في استيعاب الدين الجديد ، والاهمل من إنجازاته الثرة ، وأرجع ذلك إلى توزيعهم بين عامل الموروث الذي ألفوه وعاشروه طويلا أيام الجاهلية ، فكون نسوج عقرطم ، وانترج بقنهم ، وظل يشدهم للتعبير عنه وتمثله ، وفي المقابل تجديدهم حاجات جديدة

أوجدوها الدين الحنيف، وأملتها ضرورة الحياة الإسلامية، وتداخلت
هي الأخرى في أفكارهم ومواقفهم ونسج عقولهم ، وسفزتهم إلى
قصورها والتعبير عنها . فهذا التوزيع بين العاملين المتقابلين استنفد
طاقاتهم الفنية ، وقال من نجاحهم .

ويمكن أن نضيف أسبابا أخرى، مثل عامل الزمن؛ فالقيم والمعاني
الجديدة تتطلب وقتا طويلا حتى تختمر في الأذهان وتتشربها العقول، ثم
عنها الشعر . وكذلك وجود الشعراء المسلمين في بيئة جاهلية - لا تزال -
وأكثر الجمهور المتلقى من الجاهليين فكرا وروحا وثقافة ، وهم
لا يستطيعون الانفصال عن جمهورهم ومستمعهم .

ولاشك أن صدورهم في كثير من الأشعار عن حافز الرد على
المشركين ونقض قصائدهم ، جعلهم يتابعون نفس التقاليد الفنية،
ولو خالفوا تلك التقاليد لأخفقوا في الرد عليهم ولمنعهم . يؤكد
ذلك أن الأشعار التي خرجت عن ذلك النطاق ولم يقصد بها هجاء
المشركين أو مناقشتهم ظهرت فيها المعاني الإسلامية واضحة ، كراتي
الشهداء ووصف البلاد الجديدة ، ومعارك الفتوح ، والحنين والفربة ،
وما تناول خلقا أو مبدءا إسلاميا .

ورغم كل ما سبق ، فإن كثيرا من الأفكار والمعاني الجديدة عرف
طريقه إلى الشعر الإسلامي ، وخاصة في الأغراض المبتكرة ، وبعضه
ظهر في موضوعات قديمة أيضا .

ثانياً الأغراض والموضوعات : كان الشعر الجاهلي يمس حياة
عرب الجزيرة في انحصارها ومحدوديتها ، فهو ينفذ في ميادين
ثابتة لا تتغير :

(١) مدح للملوك والوجهاء الأثرياء ، يشوبه الاستغراق ويمجج
إلى المبالغة ، ويعتبر — إلا في القادر — عن ملق ورياء .

(٢) فخر بالنفس والقبيلة ، يدور حول عمارة معدودة من النسب
والحسب ، والشجاعة المتهورة أحياناً ، والكرم الذي يبالغ حد الإسراف
والسفه أحياناً .

(٣) رثاء يغترف من معين المدح غالباً ، ويغلفه إحساس حاد
بالضياع والفناء بسبب الفراغ الذي يهيب .

(٤) هجاء لا يتورع عن الفحش والإفداع ، مالبس للمعاصير
والمفاخر ، مضافاً على الخصم مثالب ونقائص بالكذب والإدعاء ،
والمبالغة في الذم .

(٥) غزل قلده بغالطة بكاء الأطلال ، ويقترن على الوصف
الظاهري لمحاسن المرأة الجسمانية غالباً ، أو المغامرات التي تغدس الحياة ،
وتمس العرض والخلق .

(٦) وصف الطبيعة حية وصامتة ، وهي في البيئة الصحراوية فقيرة
قليلة التنوع محدودة الآفاق .

وأخيراً أبيات الحكمة التي قد تأتى خفاما للقصيدة ، وقد لا يتطرق
إليها الشاعر .

ثم يشرق الإسلام بنوره ، وتغير حياة العرب من وثنية مشركة
إلى موحدة موحدة . ومن قبلية ضيقة إلى إنسانية رحبة عريضة . ومن
مادية متدنية إلى روحية سامية رفيعة .

وتغير الشعر كما تغيرت الحياة ، وتوسع أمامه الآفاق ، وتعدد
المبادئ ، وتظهر أغراض جديدة ، وموضوعات لم تكن من قبل
معروفة ولا مطروقة ، بل وتكتسب الأغراض القديمة روحاً جديداً
وبهاء متألفاً .

ويمكن أن نلتمن إلى عدد محدود من الأغراض قد ترك تماماً مع
الإشراق الهدى المهدى ، وحتى المصير الأموى ، وذلك لعارضها مع
قيم الإسلام وأخلاقياته .

من تلك الأغراض ذكر الخمر ، وصفها ، والتغنى بها ، والشوق
إليها ، وبيان أثرها في النفوس ، وتصوير بحالها وشاربها ، وصفاتها
وصنعها وبائعيها ، وكل ما يتصل بها .

ومنها شعر الجون : سواء ما يتعلق بالغزل الفاحش ، واللام
العابت ، والمقامرات المستهترة ، أو بحال الغناء والقيان والطرب .
ويدخل في هذا النطاق الشعر الذى يتحدث عن الميسر ولاعبيه
وبحاله ورحلاته .

ثم تأتي المنافرات أو الهجاء القاسم على ما يحط من الشرف ،
ويغندش الحياء ، ويهزق الأواصر ويورث البغضاء والشارات ،
ولو تأملنا في حكمة تحريم تلك الأفراض بعد الإسلام لوجدنا أنها
ليست منافاتها للقيم الدينية فقط ، وإنما لما تسببه وتؤدي إليه من
تخريب للشعور ، وإذهاب للعقول ، كما أنها مضيعة للصحة والمال
وهدم للفرد والجماعة ، وهي على الجملة إهانة للإنسان الذي كرمه الله
على سائر خلقه حتى الملائكة ، مما يناقض الدعوة الإسلامية لقوة الفرد
والجماعة ، قوة مادية ومعنوية ، وكذا الدعوة للتمسك والرباط
والاخوة .

ونستعرض الأغراض التي ظلت من الجاهلية ، فنظم فيها المسلمون
مع إضفاء الصبغة الإسلامية عليهم ، وتصفيتها عما يتعارض وتلك الصبغة
من أفكار أو ألفاظ :

المدح : كان المدح في الجاهلية تقرباً للممدوح طلباً للنفعة واتقاء
لضره ، وكان وسيلة للتكسب عن طريق العطايا والهبات التي يمنحها
الممدوح مكافأة للشاكر .

وفي النادر القليل يصدر المدح عن عاطفة صادقة وإعجاب حقيقي ،
ولكنه غالباً يأتي مرأاة ونفاقاً .

فلما جاء الإسلام قل شعر المدح إلى حد كبير ، وربما صار قاهراً
على مدح الرسول ﷺ وإشارات قليلة للخلفاء الراشدين ، وكلامه

ينبع من حب صادق ، وإعجاب منبه عميق ، بما في شخصية النبي من سمو وترفع ، وما لدى الخلفاء من تقى وورع وطاعة ، وتحرر دقيق للحق والعدل ، وبعد أن كان الخافز في المدح هو التقرب للملك أو للرجية الأثرى ، صار قربى إلى الله وطاعة له ، فالرسول وخلفاؤه يمثلون رموزا للإسلام وتبسيدها لمبادئه وتطبيقاته لأواسمه ، ولذا فإن مدحهم ليس مدحا لذات الشخص - وإن كان خليفته - ولكنه في المقام الأول مدح للمعاني والمبادئ التي يمثلها ، ثم تفرع عن المدح الفردي مدح للجماعة الإسلامية ، وتجهيد للدعوة الجديدة ، ويرمز للجماعة الإسلامية بالمهاجرين تارة وبالأنصار أخرى ، وبهما معا أحيانا .

وهذا المدح الجماعي يبرأ من الجمالة ، ويتمتع عن المباغة ، وهو يهدف بالدرجة الأولى إلى إلهاء شأن الدين ورفع لوائه ، والإشادة بالمسلمين الأوائل ، الذين حملوا عبء الجهاد في الأيام السعيدة من بداية الدعوة ، حين كان الإعداء كثر ، والقرعة محسوسة ، والنصر عزيز المنال .

ويمكن أن نجمل خصائص المدح أيام النبوة والراشدين في :
 (١) صدوره عن عاطفة قوية وإعجاب صادق بالرسول وأصحابه وخلفائه ، وبالجماعة الإسلامية من مهاجرين وأنصار ، فلا تفاق أو رياء ، ولا ملق أو تقرب ، ولا شبهة للكسب والمنفعة .
 (٢) صفات المدح ، أو مواضع المدح ، تجمع بين قليل مما عُرف في الجمالية كالشجاعة والكرم والمروءة والفجدة ، ثم تضيف

إليها مناقب وصفات إسلامية معسرة ، كالجهاد في سبيل الله ، والنزول للشهادة ، ونشر الدين وإعلاء كلمة التوحيد ، وكذلك نبل الأخلاق ، وطاعة الله ورسوله ، والمحرص على الجماعة الإسلامية والسعي لخيرها ، والعمل بكتاب الله وسنة نبيه ، والبعد عن نواهيها وما يفضضها .

(٣) ذكر الحقائق والوقائع دون مبالغة أو تهويل : لقد كان سجل البطولة الإسلامية، ومنافس المسلمين حافلاً بآخر ، وطاف به من حقائق يفوق تصور الخيال ، وروعة المبالغة .

(٤) استخدام لغة سهلة تتضمن مفردات وعبارات دينية إسلامية ، وتنأى عن الكلمات والعبارات الجاهلية .

الهجاء : اتسم الهجاء في الجاهلية بالاعتداء على الأعراس والمحرمات ، وسلب الشرف ، والعيب في الأنساب والأحساب ، وكذلك الذم باللفظ الجارح ، والمعنى القسارص ، فكان الناس يضطرون إلى شراء السنة الهجائية ، وتجنب إثارتهم ، كما كان يحدث مع الخطيئة . وأحياناً يضطر المرء إلى استهجار شاعر الرد على من يهجوّه .

ثم بحث الرسول عليه السلام بتعاليم الدين السمحة وخلقته الرفيع ، جذر من التناذب باللقاب ، ومن القبيحة والذميمة ، ومن التباغض والتخاضع ، ودعا إلى الأخوة والمحبة والتسامح ، وطالب المجتمع المسلم بأن يكون جسداً واحداً متحاباً ، ويسكن أفرادُه أعناقاً في الجسد ،

يقول لجميع ما يحق بالواحد ، وحينئذ كف للشعراء المسلمون عن الهجاء
تأديا بأدب الإسلام ، إلا أن شعراء الشرك فتحوا نيران أسلحتهم على
النبي الكريم وعلى المسلمين - مهاجرين وأنصارا - فأذن الرسول -
ﷺ - للشعراء الأنصار برد الأذى ، والدفاع عن النفس والدين ،
فالهجاء من المسلمين كان اضطرارا وحالة من حالات الدفاع .

فلما فتحت مكة ، ودخل الناس في دين الله أفواجا ، توقفت
المعارك الكلامية بين المشركين والمسلمين ، واختفى الهجاء تقريبا
بقية عهد النبوة والراشدين ، وكان الخلفاء رضوان الله عليهم يعطون
للشاعر الهجاء ما يكف أسنانه عن إيذاء المسلمين ، ويعاقبون من
يستمر في الهجاء ، فلما جاء بنو أمية تغير الحال .

ولستطيع التخصيص سمات فن الهجاء الذي مارسه المسلمون فيما يلي :
(١) لجأ إليه شعراء الإسلام دفاعا عن النفس والدين ، بعد أن
تجاوز المشركون فيه الحدود ، وصار الصمت ضعفا .

(٢) ابتعد عن الفحش والإقذاع ما أمكنه ، وركز على جرح
المشركين حق الله وقدره ، وكفرهم به ، وتسكينهم نبيه .

(٣) كان حسان يستغل ما في أنساب المشركين من هنات ، وقد
استخدم في أحيان قليلة ما يحبط الثمر ويخرج عن قيم الإسلام ،
وعذره في ذلك حاجته إلى إضعاف الكفار ، ورد سهامهم
وإخراص أسلحتهم .

- (٤) كان فيه هجاء الاشخاص الفردى ، وهجاء القبائل الجماعى ، وهو فى كلا الحالين رد على هجاء سابق للمشركين .
- (٥) لم تخصص للهجاء قصائد مفردة ، ولكنه يأتى مختلطاً بأفراض أخرى كالغنى ووصف المعارك ، أو الحرب النفسية .
- (٦) وهو مثل بقية فنون الشعر الإسلامى تكتنف فيه كلمات إسلامية ومعان دينية بنسب مختلفة .

الفخر : كان الشاعر الجاهلى بطبيعته يباهى بها معتدا بنفسه وجنسه . يكثر من الفخر فى قصائد خاصة بغرض الفخر ، وفى أبيات عبر قصائد نظمت لأغراض أخرى ، كان يزعم ويباهى بها فديه بما يستحق الفخر والمباهاة ، وقد يحتل ويتخيل ما يفخر به ، أو يفخر بها سوف يفعله وما سيكون عليه ، يفخر بشخصه وجماعته القروية وقبيلته وعشيرته ، ثم يتماهى ويفخر بأصله العربى . وكان مناط الفخر أولاً هو الشجاعة التى فصل إلى النهور ، والقوة التى تدفع للعنوان ، والجلل الذى يجر إلى الظلم ، ثم الأخذ بالثأر ، وعدم الصبر على الضيم والذل .

وكذلك الفخر بالحسب والنسب ، وكرم الخند ، ونقاء الأصل والمصيبة القبلية . وتأتى المواقح والأيام التى شهدتها أو شهدتها قبيلته وحققت فيها انتصارات ، ثم يباهى بقيم أخلاقية وصفات حميدة ، كالبرورة والجددة وإفائة الملهوف ، والعنة وإكرام الضيف ، والرفع عن الصغار ، ولا ينسى أن يفاخر بلهوه وعيشته من مناسرات عاطفية

وتشذيب بالنساء ، وشرب للخمر وبجائس الغنم والجوف
والخروج للصيد .

ومن مكة - الأرض الحرام - يشرق فجر جديد للعالم أجمع ،
ويكون العربي هو المثل والقدوة ، وهو المبلغ والمدعى ، ولا يقف
الدين الحنيف من نزعة الفخر العربية الإنسانية موقف التعنت والرفض
المتهاسب ، ولكنه كعادته يتخذ منها موقف التوجيه والتهديب ،
فيفخرون بأجداد أسمى وأعد كالسابق للإيمان بدين الله ومفارقة الشرك
وكذلك المبادرة بالمجرة طاعة لله ورسوله ، أو نصره الدين والجهاد
في سبيل الله . وأصبح البلاء من أجل العقيدة وطلب الشهادة مناط
فخرهم الأول ، ثم يأتي الزهو بنصر الله وتأيد الملائكة .
وفي المجال الأخلاقي تكون التقوى ، وطاعة الله والرسول ، ثم
اجتناب المحرمات والبعد عما يستكره .

وأخيرا ما رضى عنه الإسلام وأبقاه من طباع الجاهليين
وأخلاقهم ، كالكرم وقرى الحنيف ، والنجدة وإغاثة المستجير ، والحنف
عما لا يملك ، والشجاعة في الميدان .

واستعاض عن الفخر بالأصل والحسب فخرا بالانتماء إلى الإسلام
الحنيف ، وعن القبيلة والجنس اعتزازا بالقبلى وجهادة المسلمين
والصدابة المجاهدين .

وبذا يمكن استخلاص سمات الفخر الإسلامى فيما يلى :

(١) التقليل ما أمكن من الفخر والمباهاة لأن الإسلام يدعو إلى

التواضع ، ويرى أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين وأن خيلاء الفرد وكبره مصيبة ومكروه .

(٢) ما بقي من فخر طبعه الإعلام بطابعه ، فصار مقاطعة ما يتصل بالدين من الإيمان والنعوى ، والقتال حتى النصر أو القهارة في سبيل الله ، وما يتصل بجماعة المسلمين من طاعة الرسول والتأخى والسعى لحشر الجماعة ، وأخيرا ما يتعلق بالخلق الرفيع سواء ما كان جاهليا أقره الإسلام أو ما يجد مع الدين التوسيم .

(٣) انتفى من النخر كل ما يتعلق بالحسب والنسب ، وما يثير العصبية القبلية ، وحل محله شرف الانتماء للدين وجماعة المسلمين .

(٤) الفخر بالنفس وبالجماعة يمكن في إطار إسلامي لا يهدد تماسك المسلمين ، ولا يسمى الضغائن ، كما فعل وحسان ، في زهوه بالانصار لما قدموه من نهضة الرسول ، واستضافة المهاجرين ، والدفاع عن الإسلام ، وكذا ما كان من فخر نافع بن قحطبة ، بقومه بني تميم لمساعدتهم إلى الدخول في طاعة الرسول والهجرة ومناصرة الإسلام بما يعزز ماضيهم الجليل في الجاهلية .

(٥) تنفصل فخر الشعراء المسلمين من المبالغة وتجاوز الحد مكنتها بذكر الحقائق ، والتعجب عن الوقائع .

(٦) استخدام لغة سلسلة تتضمن ألفاظا وجملا ذات صبغة إسلامية ، وتبعد عن التّعجب والغرابة .

الرثاء فمريد الرثاء من أقدم فنون الشعر العربي ، وهو يقترب من المدح في كونه يمدح صفات الأعظمة والبطولة والشجاعة في المرمى - كما في الممدوح - ثم يضيف الجرع الشديد لموته ، والمخماره الشخصية أو القبلية أو العامة الناجمة عن فقدته .

ولأن العرب في الجاهلية كانوا غير موحدين ، ولا يؤمن أغلبهم بالبعث والحساب ، لذا كان رثاؤهم يتسم دائما بالندجيمة والحسرة الشديدة لفقد الميت ، ولا يحصى أية إشارة إلى مصيره الآخرى . وإذا كان قتيلا في حرب ، احتلت الدعوة للثأر مكانها ، وكثر الحديث عن روحه القلقة الهائمة حتى يثأروا له .

ثم سرت الروح الإسلامية في فن الرثاء ، إبان بعثة الرسول عليه صلوات ربه وسلامه ، وانفجار الصراع بين الإسلام والشرك ، وتبايعت الغزوات في عهد النجى إلى أن فتحت مكة ، وبدأت الفتوح ونشر الدين في آفاق الأرض ، وهنا يتسم الرثاء على يد الشعراء المسلمين ببيان بسالة الشهيد في حومة الوفى ، وعرضه على إعلاء كلمة الله ، وإصراره على النصر أو الاستشهاد ، ثم ينتقل الشاعر في رثائه إلى بيان ما أعد الله للشهداء لدى الله من نعيم الخلد ، وعاء المنزلة وكونهم أحياء عند ربهم يرزقون . وإن كان المشركون يفتقدون سحر الغاية من القتال ، ويشفرون بعينية الموت في الممركة ، اللهم إلا ما تراضوا عليه من الحرص على النجات والشجاعة - إذا كانوا هم كذلك - فإن المسلمين قد توافر لهم نبل المقصد وشرف الغاية ، وأبى هدف أسهى من الجهاد في معنيل الله ، والدعوة لدينه والاستشهاد دفاعا عنه ؟

لذلك ظهرت في الرثاء سمات العبر والاحتساب ، والرضى بقضاء الله ، والامتثال لحكمه ، والاستبشار بجمته وموابه ، وما وعد به الشهداء والمؤمنون ، فخنفت هذا من الجزع الشديد ، والامسى الفاجع على الفقيد ، وحل العبر على البلاء واحساب الاجر عند الله محل اليأس والسكدة . وحقق في ظروف الموت المادى أصبح الرثاء مختلفاً كذلك لأن الميت مسلم مؤمن ، أطاع الله ورسوله ، وأدى فرائض دينه ، وعمل بأوامر ربه واجتنب محارمه ، فشواه الجنة ، ومن هذا أحست الخنساء بالحزن مضاعفاً على أخيها صخر بعد أن هداهما الله للإسلام : « كنت أبكى لصخر من القتل ، فأنا أبكى له اليوم من النار » .

وكل هذا الجنيد أضيف إلى ما أقره الإسلام في الرثاء الجاهلى من بيان عظمة الميت أو الشهد ، ومكانته بين قومه وصفاته الأخلاقية النبيلة .

وبخلاصة ما يقال عن الرثاء الإسلامى :

(١) احتفظ ببعض السمات الجاهلية مثل : بيان العظمة الإنسانية ، والحقوقية والمساكنة الاجتماعية للفقيد ، وكذلك الحزن لفقده .

(٢) استبدال الجزع المهلك ، والامسى الفاجع ، العبر والاحتساب والامتثال لقضاء الله .

(٣) في حالة الاستشهاد يصبح الفرح بالجنة ورفعة المنزل عند الله هو الطابع الغالب على الرثاء .

(٤) يضاف إلى ذلك ذكر ما أبداه الشهيد من بلاء في سبيل الله ودفاع عن الدين وزود الشركين .

(٥) وإذا لم يكن الفقيه من الشهداء فهو مسلم عاش حياته مطيعاً لربه محباً لنبيه - عليه السلام - عاملاً بكل ما أمر به ، مبتعداً عن كل ما نهى عنه ، ولذلك فإن الجنة مقره إن شاء الله .

(٦) حملت كلمات الصبر والرحمة والأجر والاحتساب ، ثم الشهادة والجنة والجهاد في سبيل الله ونصرة الدين ، بدلا من ألقاظ الهلاك والقتل والجزع والفقد والشار وشقاء الغليل .

شعر الحماسة : مرتبنا أثناء استعراض نماذج من الشعر الإسلامي .

ثلاثة أغراض هي : وصف المعارك ، والحرب النفسية ، ثم الإقدام على الجهاد والفرح بالشهادة ، وهي جميعاً تنضوي تحت ما عرف في الجاهلية بشعر الحماسة مع الاحتفاظ في ذهن بالفارق بين مفاهيم الجاهلية والإسلام ، وشعر الحماسة مصطلح قديم يطلق على كل ما يتصل بالقتال سواء فيه وصف الاستعداد السابق للحرب ، من خيل وأسلحة وجند ، أو وصف مساحة الحرب وشجاعة الفرسان ، أو التخويل عن المقاتلين بتخويف العدو من قوتهم وجسارتهم . وكل هذه المبالغات ظلت مطروقة بكثرة من الشعراء المسلمين ، بعد أن سادوا عليها من سيات الدين وروحه ما أعادها خلقاً جديداً مثل :

(١) في بيان الأسلحة والمعدات ذكر الشعراء الإسلاميون

أسلحتهم الحربية المادية ، وأضافوا إليها أسلحة جديدة منحها إياهم الدين الحنيف ، كالتقوى والإيمان والصبر ونبل الهدف من القتال ، وتأيد الله وملائكته ووعد المؤمنين بالنصر ، ما داموا صادقين صابرين ، ثم الثبات في الميدان لتحقيق النصر أو الفوز بالشهادة ، بل كان حرص المسلم المجاهد على الاستشهاد أشد من حرصه على الحياة ، وذلك أدعى لفرع السكفار من أى سلاح فأنك .

(٢) في وصف المماركة وبسالة المجاهدين تبذلوا أروان من البطولة أقرب إلى الماهجات ، وفي تصوير السعى للجهاد والإقدام على الشهادة تحكي قصص خيالية وشعراوية يصعب تصورها ، ولكنها جميعاً حقائق وقائع لأشخاص معروفين منهم بيقين العقيدة وصدق الإيمان قوى لا تقبل .

(٣) في مجال الحرب النفسية ، وهي أناشيد حماسية تردد قبل الممركة تحت المجاهدين على الصبر والإقدام ، وتستغفر الأعوان للنجدة والمناصرة ، وآلهو للثبات ، وترهب الأعداء بما تسفه من عدة المجاهدين وهذهم ، وتفرعهم بما تصوره من جسارة المسلمين وعزيمتهم وفيها بعد الإسلام يكون الاعتماد بتأييد الله والملائكة والنصر الذي وعد به المجاهدون ، وبذلك يكون الترهيب والتعزيز بالأسلحة المادية والمعنوية ممثلاً في قوة الله التي لا غالب لها ، وتأيد الله الذي لا يعدله تأييد .

(٤) اختلفت كلمات النار والإنقام ، وتوارى التمهيب الغيل

بالحق والباطل ، وظهرت مفردات وعبارات إسلامية جديدة كالجمادات
والثبات والشهادة والجنة ، وأصرة الدين والرسول وسلاح الإيمان
والثقوى ، وظهور الحق ودحر الباطل ، والانتساب للإسلام وليس
للجنس أو القبيلة ، والقتال لتحقيق غاية سامية وليس ثأراً
أو مجداً شخصياً .

القول والنسيب : يرى عدد كبير من المدارس أن النزل كان من
الأغراض التي مبرها الشعراء الإسلاميون ، استكنى است مع هذا
الرأى ، حتى لو حددنا فترة الترك بمصر النبوة والراشدين ، ذلك
لأننا نلتقى بنماذج عديدة للنزل إبان تلك الفترة ، وخاصة مطالع
القصائد في أغراض مختلفة ، وكذلك ذكر الدكتور عبد القادر التل
قصيدة مشقة في الأمل ، للشاعر : د مضر بن قز ، وأبيات
د أمجد الله بن عاتمة ، ، ثم مقطورة « أمجد بنى الحساس » ، وكلمها
شعر غزلى رفيق . والأقرب للدقة أن نقول : إن النزل كفرض قائم
برأسه ، تمهص له قصائد كثيرة كاملة ، ترك لحنوات في أول العهد
الإسلامي لكنه ليس الترك العامد ، باعتباره محرماً أو عقوراً وإنما هو
الإهمال والتراخي بسبب الانشغال بأور أخرى ، فلم يؤثر عن
النبي عليه السلام أو خلفائه رضى الله عنهم ، ما يفيد الحظر أو التحريم
أو حتى الكراهة ، لقد سمع الرسول قصيدة كعب بن زهير « بانث سعاد »
وفيها مقدمة غزلية طويلة ، فلم ينكر عليه ، وسمع من الحسن بن ثابت

قصائد عديدة تبدأ بالغزل ، ولم يرو عنه إنكار أو إعراض ، وقال
الجباج : دخلت المدينة ، فقصدت إلى مسجد النبي ﷺ ، فإذا بأبي
هريرة قد أكب الناس عليه يسألونه ، فقلت هكذا : أفرجوا لي عن
وجهه ، فأفرج لي عنه ، فقلت له إنما أقول هكذا :

طاف الخيالان فهاجا سقيا

خيال أدوى ، وخيال تسكتا

تريك وجهاً ضاحكاً ومعضماً

وساعداً عبلاً وكفا أبرماً

فأقول فيه ؟ . قال : قد كان رسول الله ﷺ يشد مثل هذا
في المسجد فلا ينسكركه ،^(١)

فالغزل على إطلاقه - ومنه مطالع القصائد - موجود في العصر
الاسلامي خلال الميمنة النبوية وعهد الراشدين ، وسوف يتسع ، وتكثر
نماذجها وتسميتها بقصائد عديدة ، بل ويتسع باباً ضخماً من أبواب
الشعر الأدوى ، ويتفرع لأنواع مختلفة بين عذري عفيف ، وحسي
جري ، ويضرب له شعراء يقهرون جمدهم عليه مثل عمر بن أبي ربيعة ،
وذو الرمة وابن قيس الرقيات .

ونجمل سمات الغزل عبر عهد النبوة والراشدين في :

(١) المعقد الفريد : ج ٣ ص ١٥٥

(١) نماذج الغزل في العهد النبوي وفي حكم الراشدين تتمثل في قصائد ومقطوعات قليلة ، وفي مطالع كثير من القصائد لأغراض مختلفة .

(٢) لم يعترض الإسلام على الغزل ولم يحرمه ، ولم يشكره الرسول ﷺ ، ولكن الشعراء المسلمين شغلوا عنه لأنه مرتبط بالفراغ والذعة ، وهم كانوا مشغولين بما هو أهم من نشر الدعوة في آفاق الأرض والجهاد في سبيل الله والدفاع عن الدين .

(٣) يفهم ضمنا أن الإسلام بما يشه في النفوس من قيم أخلاقية سامية ، وسماية للحرمان وحفاظ على الشرف ، وبما أسبغته على المرأة من تكريم وإجلال ، وبما أشاعه من العفة والحياء ، لعل ذلك فقد كثره الغزل المتعشك ، والتعشيب الحسى المستهتر ، وما كان شامدا للحياء أو مستديا على الأعراس والحرمان ، ولستكنه رضى عن الغزل الرقيق العفيف ، الذى يعبر عن احترام للمرأة وحفاظ عليها وإشراز لها . ولستطيع أن نجد من أمثال هذا الشعر كثيرا من المقطوعات في كتب المختارات والتراجم ، أغلبها لشعراء مقامين ، كانوا يقولون الشعر في وقته انفعال خاص ، استجابة له حدث معين في حياتهم ، على أن من بين الشعراء المعروفين أيضا من نجد لهم أمثال تلك المقطوعات البالغة الرقة في أسلوبها وعواطفها ، وكأنها لشاعر طال عهده بالحنانة واللين ، (١)

(١) في الشعر الإسلامى والاموى : د . عبد القادر القفل ، ص ٢٦

(٤) لا نستطيع القول بأن الغزل تعرض لتطور كبير في أول العصر الإسلامي ، اللهم إلا ما أشرنا إليه من بعده عن الحسية ، والاستمرار والعجث ، وميله للرقّة والنعفة ، وحرصه على ما يرضى الخلق القويم وعلى الأعراض والحرمات لئلا يكتن التطور الحقيقي سيظهر بعد ذلك في عهد الأمويين .

الأغراض الجديدة : بالإضافة لما أدخله الإسلاميون من سمات جديدة ، وطوايع مستحدثة على الأغراض المطروقة في الجاهلية ، فإننا نلاحظ أثرهم التطويري أيضا متمثلا في ابتكار أغراض وموضوعات لم نعرف من قبل ، وهي :

١ - وصف البلاد الأخرى : عاش العرب قرونا في شبه الجزيرة لا ينفذون بها ، إلا نادرا ، وفي رحلات محددة المسار بهدف تجاري مسبق ، وكان القائمون بها تجاراً ، وأصحاب رؤوس الأموال ، فلا شأن لهم بأحوال البلاد وصفات أهلها . وأحيانا يقوم أحد الشعراء برحلة إلى ملك أو عظيم لمُدحه واسترقاده إلا أنه لا يلتفت غالباً للبلاد وأهلها ، فهو قد أعد الشعر مسبقا وهو يرغب في تحقيق هدف الرحلة والعودة سريعاً . خلاصة القول أننا لا نجد نماذج لوصف البلاد وسمات السكان خارج شبه الجزيرة قبل الإسلام .

فلما بعث النبي عليه السلام مبشرا وهاديا للإنسانية كافة ، وبعد تهيئة دعائم الإسلام بفتح مكة ، بدأت حركة نشطة لأدب الدين

وهداية الفاس، ولئن كان الأسر قد اقتصر في عهد الرسول على غزوات سرية محدودة الأثر والبعد، إلا أنها كانت إشارات بدء، وأمثلة تحتذى، ثم تبعتهما غزوات ضخمة بعيدة المدى واسعة الأهداف، وفيها انطلقت الجيوش الإسلامية شرقا وغربا ترفع راية الحق والهدى، وتحقق النصر الذي وعد به الله سبحانه، ووعدته الحق، وأطلع العرب على بلاد تختلف عن بلادهم كل الاختلاف، سواء في البيئة الطبيعية أو في نظم الحياة وعوائد البشر، أو في درجة الحضارة والتقدم المدني.

ولم يقتصر الشعر الإسلامي في وصف تلك البلاد، والتعريف بأهلها وطبائعهم وسلوكهم وطرق معاشهم وملابسهم، وكذلك معانيهم ومعالم حضارتهم، وإنما يجاز: حاول أن ينقلنا إلى تلك الدنيا الجديدة لنراها كما نراها ونحس بإيقاع الحياة فيها كما أحس. ونستخلص ملامح هذا المجال الشعري الإسلامي في:

(١) لأن هذا الغرض جديد وناشئ فمناخه جديدة، وهو لا يتكى على نوات سابق، ولكنه يبتدع تقاليده الخاصة ويتخذ لغته المناسبة.

(٢) هدفه الأول هو التعريف بالبلاد وما يميزها من ظواهر طبيعية وحضارية، ولذلك يلتقط الطرافة اللافتة مثل البرد القارص، أو الحيرات الكثيرة أو الأفيال المشاركة في الحرب، ثم عروش الملوك

والسكنائس الضخمة ، ويتطرق أحياناً للملابس الجند وأصرفاتهم . . .
وهكذا .

(٣) يغلب عليه طابع الدهشة والتعجب والقطعات السريعة المارة
دون تأمل أو استبطان للظواهر .

(٤) لغته سهلة بسيطة ، فلا تقع ولا كلمات نادرة ، ولا ألفاظ
ضخمة غريبة أو أساليب معقدة .

(٥) يتناول من التشبيهات والصور المألوفة : لأنه يعرض مناظر
غير تقليدية ، ويحفل بطرائف مستحدثة لا تظهر لها ، ولذا فهو لا ينمل
من معين سابق ولا يندسج على عموال قديم .

٢ — الحقن والغربة : من أرق وأعذب ما أضافه شعراء
الإسلام إلى الديوان العربي ، تلك الغمات الرقراقة الحارة المتدفقة ،
التي سمرت تتصل الشوق والحنين من المجاهدين المنقرين إلى وطنهم
وأهلهم ، ثم ترجع سائلة الهممة والشوق والحنان من الأهل والوطن
للمذات الأكباد البعيدة ، وسقيفة أن بعض الدارسين يرى المطالع
الطليعة لبعض القصائد الجاهلية صوراً من الحنين ، يتذكر الشاعر
ماضيه أيام كان والمحبة في منازل متجاورة ، فيحنى لتلك الأيام
ويذور آثار المنازل وأطلالها ، سائلاً عن أهلها الراحمين ، متشوقاً
لذكر ياته وسعادته الضائعة .

لسكن البون شامع بين الحنين والغربة في العصر الإسلامي وبين تلك المطالع ، لقد صار فناً محدد القسمات واضح المعالم ، يختلف كما وكيفاً ، وله سمات ظاهرة يمكن لمبحره في :

(١) أصبح مقاطع كبيرة في بعض القصائد ، كما اختصت به قصائد كاملة طويلة ، وتعددت نماذجه وكثرت ، خاصة حين امتدت الفتوح الإسلامية إلى أقصى الأرض شرقاً وغرباً مع نهاية عهد الراشدين حتى الأمويين .

(٢) حفر إليه إحساس حاد بالغربة ، لأن الشاعر المسلم انتقل مع الجيوش لبلاد شديدة الاختلاف عن وطنه ، وعاشراً أناساً لا يشبهون أهله ، ولا يتكلمون لغته ، وكذلك انبعث نتيجة حنين فياض للوطن بأكملة ، وليس لحى أولادهم أو سمع ، حنين للسماء والأرض والمناخ والنبات والحيوان والطير ، حنين للخيام والنوق والشيء ، للرياح والبرق والمطر ، اشتياق عارم للأهل والأحباء والناس - كل الناس - في ذلك الوطن .

(٣) وبأق الحنين والنشوق من اتجاهين متراسلين : حنين من الأهل المجاهدين الأبطال ، الذين خرجوا يملكون كلمة الحق وينشرون التوحيد ، يشيرون الإيمان ، ثم حنين من المغتربين يبعثونه للأهل والوطن بكل مفر داته وذراته وظواهره .

(٤) وكلا النوعين يخرج في نغمات رقيقة وإحساس دافق فياض ومشاعر حارة صادقة .

(٥) وقل ما شئت عن جمال اللغة وسلاستها وموسيقيتها وعن
عذوبة الألفاظ ورقتها ودقة تعبيرها ، وعن انساق الأسلوب
وروعته وبلاغته .

(٦) بعد أن كان الشاعر المسلم الحنان يكتفي بلبث أشواقه في مناجاة
مباشرة للأحباب والوطن والماضي السعيد ، بدأ يتخذ وسائل
فنية للتعبير عن ذلك المائل من المشاعر الدائرة ، فكانت الحماة ردوا ،
يفصح من خلاله عن أشواقه وتحنانه ، كما يقارن بين حنينها وحسينه ،
وشجوها وشجوه ، فيكون هو الأشد لوعة والأهمل لطفه ، لأنها تجمع
بلاعبات وهو يبكى بدمع خفيف ، وراح يلتفت كذلك إلى نباتات
وأشجار وطيور كان يراها في وطنه ، فيحتفل بها ويحن إليها تعبيرا
عن حنينه إليه .

٣ - المعاني الإسلامية : وهذا هو ثالث الميادين التي فتحها الشعر
الإسلامي ، وبعد أرحمها وأكثرها تنوعاً ، والشاعر العربي متمرس
منذ القدم بالحديث عن القيم الأخلاقية والمثل ، وهي إحدى مجالات
شغره واعتزازه .

ولا جدال في أن العرب - رغم جاهليتهم - كانوا على مستوى
خلفي رفيع ، يؤمنون بقيم وعبادى سامية كريمة ، مثل الوفاء بالعهود
ولإجابة الداعي ، وقرى الضيف ، والجود للساكن ، ونصرة المظلوم ، كانوا
يؤمنون بمثل تلك القيم وبدعون إليها ، فلما هداهم الله للإسلام ثبتهم

عليها ، وأمدحهم بالمزيد من الصفات العالية والمثل الشريفة بين
دينية وأخلاقية .

أما عن صياغة هذه المثل والأخلاقيات شعرا ، فقد اعتاد العرب
استغلال طاقات الشعر وإمكاناته في التهذيب والدعوة لما يريدون من
مبادئ وقيم ، وإلى ذلك يشهد أبو تمام :

ولو لا نخلال سنها الشعر ما درى

بغاة الملا من أين توفى المسكارم

وكان ذلك فيما يعرف بشعر الحكمة الذي يصاغ في أبيات تختم
بالنصيدة أو تنخللها ، واسكنه ليس تقليدا متبعا عند كل الشعراء ،
وليس في كل القصائد ، ومن هذا فلا يمكن اعتباره غرضا قديما
جده الإسلام وأضاف إليه وإنما هو فرض إسلامي يحض ابتكره
المسلمون ، خاصة وأنهم نظموا قصائد كاملة طويلة ومتطوعات متعددة
منه . ولعل قيام الإسلام - قرآنا وسنة - على الدعوة والموعظة
يقول تعالى ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ﴾ (١) كما
يقول سبحانه ﴿ ولما قال لقمان لابنه وهو يعظه : يا بني لا تشرك
بالله إن الشرك لظلم عظيم ﴾ (٢) .

ويقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه (٣) دإن الدين النصيحة

(١) سورة النحل : آية ١٢٥

(٢) سورة لقمان ، آية ١٣

(٣) لسان العرب ، ج ٦ ص ٤٤٣٨

لله ورسوله ولكتابه ولائمة المسلمين وعادتهم ، كما يقول عليه السلام
« الدال على الخير كفاعله » ، والله يحب إغاثة اللئمان ، (١) .

لعل ذلك كله كان باعثا للشعراء الإسلاميين على الاستفادة مما في
الشعر من قدرة على التأثير والجاهزية ، والبقاء في الذهن ، واستغلال ذلك
لنشر الدعوة إلى مكارم الأخلاق ، وتهذيب الشخصية ، والسمو بالنفس
وتزقيق الطبع ، فكشرت النماذج الشعرية في هذا المجال بين قصائد
طوال ، ومقطوعات قصار ، وأبيات متفرقة ، وتتلخص ملامح هذا
الغرض في المقاط التالية :

(١) أغلب نماذج تدرج تحت ما يعرف بالشعر التعليمي إذ
يقوم على الدعوة لمبادئ الدين ، ونشر قيمه وتعاليمه ، كما يهدف إلى
إصلاح النفوس وتهذيب الأخلاق وبث الفضائل .

(٢) يستمد في أبيات غير القصائد المتخصصة لأغراض أخرى ، كما يتمثل
في مقطوعات رقصات له .

(٣) يستمد معانيه وأفكاره من مبادئ الدين المنيف ، كطاعة
الله ورسوله والتقوى والتوبة عن الذنوب ، وبر الوالدين والوفاء بالعهود . .
الخ ، وكذلك من القيم الأخلاقية العليا ، مما عرفه العرب قديما ودعا
إليه الإسلام أيضا كالكرم والفجدة والإخاء وسحق الجار . .

(٤) يتخذ لغة سهلة ، ووسائل فنية بسيطة وقد يمكنني بالنصح
المباشر ، وتكثر فيه المفردات والعبارات المقتبسة من القرآن الكريم
والحديث النبوي الشريف .

(١) فيض القدير : ج ٣ ص ٥٣٧ حديث رقم ٤٢٤٧

ثالثاً : اللغة والأساليب : في مقدمة الملاحظات التي تستلقت المدارس للشعر الاسلامي تأثره بالقرآن الكريم تأثراً غويّاً ، أو أسلوبياً بعد التأثر بالمعاني والأفكار . يتناول الدكتور شوقي ضيف ذلك الأثر في اللغة والأدب عامة فیراه ماثلاً في مجالات ثلاث : أولها : جميع العرب على لهجة قریش ، بعد تهذيبها واستكمال ما يفتقها من مفردات . وثانيها : الارتقاء بالعربية إلى منزلة لا تنافسها فيها لغة أخرى ، حين جعلها لغة دين سماوي للبشر كافة ، فوهبها معاني وألفاظ لم تكن تعرفها قبلاً ، كما وهبها الخلود الدائم والحياة المتجددة المتألفة بلا ضعف أو خمول أو موت يتمدها . وثالث آثاره : أنه هذب اللغة من الحوشية ومن اللفظ الغريب ، فأقامها في هذا الأسلوب المعجز من البيان والبلاغة ، ويكفي أن تعود إلى معلقة مثل معلقة لبيد أو إلى شعر قبيلة مثل هذيل وديوانها المطبوع ، لترى كيف أن القرآن اختط أسلوباً جريلاً له رونق وحلاوة مع وضوح الفصيح والوصول إلى الغرض من أقرب مسائله ، وهو أسلوب ليس فيه زوائد ولا فضول ، فاللفظ على قدر المعنى وكأنما رسم له رسماً ، وهو لفظ لا يرتفع عن الأفهام ولا عن القلوب ، بل يقرب منها حتى يلصق الشغاف^(١) وهذا الأسلوب للرائع الجديد أسر العرب بسحره ، وهلك أفئدتهم ببهائه وجماله فانسجوا على مفواله ، وترسموا آثاره ، واهتموا بهديته « يصوغون آثارهم الأدبية مهتدين بديباجته الكريمة » وحسن مخارج الحروف

(١) العصر لاسلامی : د. شوقي ضيف ص ٣٣ ، ٣٤ .

فيه ، ودقة الكلمات في موضعها من العبارات بحيث تحيط بمعناها ،
وبحيث تعمل عن مغزاها مع الرصانة والحلاوة ، (١) :
ويعقد الأستاذ ظافر القاسمي موازنة بين الشعر الجاهلي ومثلا
في أحد نماذجه الشهيرة — معلقة امرئ القيس — وبين الشعر
الاسلامي مبينا الفارق الكبير ، مشيراً إلى كلمات بارزة في الابيات
التي أوردها ، يقول : كان أسلوب الشعر الجاهلي متسقاً مع ما في حياة
الصحراء من شظف ، ومع ما في طبيعتها من جفوة ، ومع ما في تقاليدها
من قسوة : فخامة في الالفاظ ، وغرابة في انتقائها ، وصعوبة في نطقها ،
وتنافر في تركيب حروفها ، عسيرة عسر الحياة فيها ، جولة في
تركيبها (٢) » ويعطى المدارس أمثلة من معلقة امرئ القيس على
ما يقول من تنافر حروف الكلمات وصعوبة نطقها :

وفرع يزين المتن أسود فاحم
أثيث كقنو النخلة المتشكل
خدائره مستشورات إلى الملا
تضل العقاص في مشى ومرسل

* * * *

فلما أجزنا ساحة الحى وانتجى
بنا بطن نجوى حفاف عققل

-
- (١) العصر الاسلامي : د. شوقي ضيف ص ٣٣ ، ٣٤ .
(٢) نظرات في الشعر الاسلامي : ظافر القاسمي ص ١١

* * * *

معرفة بيضاء غير مفاضلة
ترائبها مصقولة كالسجندل

* * * *

فأضحى يسبح الماء حول كنفية
يسكب على الأذقان دوح الكهنبل

وبعد استعراض أمثلة متنوعة من الشعر الاسلامى يقول :
«وأما الشعر الاسلامى فقد تحرر من صفات أسلوب الشعر الجاهلى
تحرراً ظاهراً ، وأصبح له طابع جديد يتسم بالومتوح والسهولة
مع المحافظة على جزالة التركيب» (١) ويقول المدارس فى موضع آخر :
تجد أن الألفاظ قد تغير استعمالها ، وتجددت موسيقاها ، فليست ترى
والعققل والمنهشكل والسجندل والكهنبل ، وأمثالها ، لا روياء
للغافية ولا من كلم القصيد ، كذلك فإن تركيب الألفاظ وضم الكلمة
إلى أعنتها ، الذى هو أصل البلاغة فى رأى الجاحظ — مسلم العقيل
والآدب — قد طرأ عليه تطور ظاهر» (٢) وهو يرجع هذا التطور
الأسلوبى فى الشعر الاسلامى إلى أثر القرآن الكريم الذى فتن العرب
ببلاغته وسحرهم بفصاحته .

(٢٠١) نظرات فى الشعر الإسلامى : طاهر القاسمى ص ١٩ .

وواضح من رأى الدارسين الفاضلين أن التأثير اللغوى للقرآن فى الأدب - شعرا ونثرا - يتم فى مجالين هما :

إثراء المعجم العربى : بإضافة مفردات جديدة تدور حول الإسلام بجوانبه المتعددة : اعتقادا وعبادات ، ومعاملات ، دنيا وآخره . . . الخ .

تحول مقياس البلاغة والبيان من الغرابة والتعقيد فى ندره السكيمات وصعوبتها ، وفى نخامة العبارات وتعاطفها ، تحوله إلى السلاسة والسهولة والركة والبساطة مع رقة التعبير وقوة البيان ، وذلك بحسن اختيار المفردات والاهتداء بأسلوب القرآن فى جمال التراكيب وعذوبتها .

ومن أمثلة الالفاظ القرآنية أو الإسلامية عامة ، التى مرت بنا فيما عرضنا من شعر ، وكذا الجمل أو التركيب :

مجموعة تدور حول أسماء الله سبحانه وصفاته مثل : أمر الله ، ذو العرش ، رب المشرق ، حول ، نصر الله ، رب الناس ، عباد الله معاذ الله ، إله الحق ، إله الخلق ، الله راء ومسامح ، غفور لذنب المرء ، الله يحكم حكمه ، الله يرزقنا ، لك الخلق والنعماء ، إياك نستهدى وإياك نعبد ، توكلنا على الرحمن ، نواب الله ويعيننا الله العزيز ، الله فحمد ، أقرب إلى الله الرحيم .

مجموعة تتصل بالقرآن الكريم : كالوحى ، كتاب جاء بالحق ، كتاب منزل ، كتاب الله .

مجموعة ترتبط بالرسول عليه السلام : كالأبي والرسول ومحمد
 ومحمود ، مباركاً براحمته ، سنة . نور أضاء لها ، نور يستضاء به ،
 وراحم من رحمهم ، خاتم ، رسول الرحمة ، للنبوة خاتم ، النبي الممهدى
 آمين الله أنذرنا ناراً وبشر رحمة ، سراجاً منيراً وهادياً ، نبي الهدى
 تطيع أمره فليتنا ، الباذلين نفوسهم بأنبيهم ، يحرم شفاعة ، فترة من
 الرسل ، إذ قال في الحسن المؤذن أشهد ، خير البرية ، وضم إليه اسم النبي
 إلى اسمه .

مجموعة متنوعة : إسلام ، مسلم ، مسلمون ، جهاد مجاهد ،
 مجاهد ، هجرة ، مهاجرون ، أنصار ، موحدة كفر ، كافر ، كفور ،
 مشرك ، أصنام ، أوثان ، الشرك ، الكفار ، الظلام بمعنى الضلال ،
 البر ، نيك ، ميكال ، الصالحون ، المؤمنون ، جنان ، نعيم ، أشهد ،
 شهادة يفلد ، أتوب ، اغفر ، زلتني ، يوم الحساب ، نسج داود إذا
 بلغ النقر ، اعتصمنا ، الصبور للمة وكليتنا ، رجلاً يصل ، بشرى الحياة ،
 جنان الفردوس ، روح القدس .

ولا شك أن هناك مئات أو آلاف العبارات والكلمات الإسلامية
 في أشعار لم نستعرضها ، لأننا نتمثل بحسب ولا نحصي .
 بقى الوجه الآخر للتأثير الإسلامي في الشعر الغزلي ، وهو ميل الأسلوب
 للرفقة والسلاسة والعدووية ، ولا تعني هذه السلاسة ضعفها في اللغة أو هبوطها
 بمستوى الأسلوب عن الجلالة المتمثلة في النسيج . كما تصوره بعض المقادير . ولكن

التي بسطوا الجمال وهو ما يمكن تحولا بالإغيا هاهنا، وسوف تفتح قلوبنا حين
نتقدم أكثر في عهد بني أمية، فسوف نلتقي بالغزل العذري الشريف،
يصاغ في أسلوب غاية في الرقة والجمال والموسمية، متخيلا مفرداته
بعمارة فائقة، مبدعاً عن النقص البلاغي، وحشد الألفاظ المعجمية
الضخمة، متجنباً للغرابية والحوشية.

وقد رأى الدكتور عبد القادر القط في ظاهرة البساطة والرقة
نوعاً من ضعف المحتوى الشعري خاصة فيما يتصل بالإسلام ومبادئه،
ولكنه يحتج إذا تناول الشاعر في نفس القصيدة أغراضاً أخرى،
ويجمل لذلك بهجوية حسنة بن ثابت فيقدم أبياته التي يمدد
فيها المشركين :

عندنا شيطاناً لمن لم تروها
تشير النقع ، موعدهما كداء
يعارين الأجنة مصعدات
على أكتافها الأسل الظماء
تظل جسادنا متمطرات
تلطم من بالخمر النساء
فلما تعرضوا عنا اعتمرنا
وكان الفتح وانكشف الغطاء

والا فاصبروا لجلاد يوم

يعين الله فيه من يشاء

وليعقب الذكر وعلى تلك الآيات قائلا : والشاعر في هذه الآيات
— ولم يصل بعد إلى موضوعه الإسلامى — يعنى على طريقته في
المقدمة محتفظا بسبوت شعره الجاهلية في لغته وأسلوبه ، فإذا انتهى إلى
الحديث عن المسلمين تغيرت لغته وشاع فيها كثير من الألفاظ
الإسلامية ، وتنف ما في أسلوبه من رصانة وتأسك ، وأصبح شعره
أقرب إلى نظم المعانى الإسلامية منه إلى التصوير الشعرى :

وجبريل أمين الله فينا

وروح القدس ليس له كفاء

وقال الله قد أرسلت عبدا

يقول الحق إن نفع البلاء

شهدت به فقوموا صدقوه

فقلتم لا نقوم ولا نشاء

وقال الله قد يسرت جندا

هم الأنصار عرضتم اللقاء

والحق أن هذا المنهج يطرد في أغلب شعر حسان
الإسلامى ، فتأرجح شعره بين الأسلوب الجاهلى في
صوره ولغته ومعانيه ، وأسلوب لا يمكن أن نسميه إسلامياً

بالمعنى الصحيح ، وإنما يستخدم الشاعر فيه بعض الألفاظ القرآنية
والمعاني الدينية ويتحول فيه من د المعجم الشعري الجاهلي ، مؤثراً
بالبساطة ، التي قد تفتن أحياناً إلى ضعف النظم والركاكة ، (١)

وبرجع الناقد الكبير هذا الضعف إلى أن الشعراء في تلك الآونة
عاشوا فترة انتقال بين عصر وعصر ، حين فاجأتهم تجارب جديدة ، هم
لا يملكون رصيداً من التراث الشعري يعينهم على تصديرها ولم يتح
لهم الوقت وتلاحق الأحداث أن يهذبوا — بعد — إلى أسلوب فن
ملائم لاستيعاب تلك التجارب والتعبير عنها .

وأنا لا أوافق مع الناقد الكبير في اعتبار الآيات التي قدمها
لحسان أولاً غير إسلامية ، فغرضها — أو فكرتها الأساسية — إعلامية
إذاً أنها تهديد للمشركون بما أعده لهم المسلمون ثم هي تحفل بالألفاظ
الإسلامية ، وتبتهل لاعتناق القرابة والتعقيد وتكسب بالوضوح والسلاسة .

وكذا فاني أتحفظ على وصف أسلوب حسان بالضعف الذي يصل إلى
النظم الركيك ، وخاصة في هزئته تلك ، فهي من روائع شعره الإسلامي
وقد أشاد بها كثير من الدارسين ، كما لا فت لها من ألقائها وانتشارها في عصرها ،
ثم إن وجود بيتين أو ثلاثة في الآيات الأربعة التي استشهد بها الناقد
الكبير أقل مستوى وأدق نسجاً ، لا ينقض من قيمته القصيدة ،
ولا يسم الشاعر بالضعف والركاكة ، فالقصيدة طويلة ممتدة الأغراض

(١) في الشعر الإسلامي والاموي : ص ٤٦

كثيرة الاستطراد ، مما يوقع الشاعر في بعض الهفوات ونقاط الضعف .
وذلك يحدث لكثير من كبار الشعراء حتى الجاهليين .

لكن دفاعى — عن حسان وهزينة ، لا يمنع وجود شيء من
الضعف وهبوط المستوى الفنى فى نماذج قليلة من الشعر الاسلامى —
خاصة ما يعرف بشعر الفتوح .

وهذا الضعف يمكن تحليله بما ذكره الأستاذ الناقص عن فترة الانتقال
وجدة التجارب ، وكذلك صدور تلك النماذج عن شعراء غير محترفين
ولا معروفين بالشعر ، وإنما وضعهم الأحداث فى خضم التجارب
العنيفة التى هزت وجدانهم ، كعمارك الفتوح أو الاغتراب عن الوطن
أو فقد الأجزاء ، فنظموا الشعر دون خبرة ومراس ، ودون رصيد
من التراث الشعرى الجاهلى ولا حصيلة من الكلمات والعبارات
والصور التى يفتن بها الشاعر المحترف ، ويفتخر منها كلهم بالنظم .

والأقرب للمصحة أن نرجع السهولة والتبسط فى قليل من أمثلة الشعر
الاسلامى إلى اتخاذه وسيلة دعائية ، ثم إلى حرص الشعراء المسلمين على
مواكبة الأحداث ، وأخيراً إلى استعماله سجلاً وتاريخاً للقائع
والانتصارات .

فاتخاذ وسيلة دعائية يتطلب أن يكون قريباً من جميع المستويات
الثقافية للجمهور المتلقى ، كما يتطلب أن يكون سريع النهم ، وبالتالى
سريع التأمير ، وكل ذلك يحوج الشاعر إلى استعمال لغة سهلة متداولة

هذا إلى البعد عن الإغراب والنعقيد ، بل وحقق عن الوسائل الفنية التي
تحتاج من مثليتها إلى تأمل ولعمل فكر وثقافة خاصة .

أما حرص الشعراء على مواكبة الأحداث فيدفعهم إلى كثرة
النظم والاسراع إليه بمجرد وقوع الحدث كي لا يتهم بالتخلف عن
المشاركة وعدم الاهتمام وذلك الاسراع يجرمه من التروى واختار
الفكره ، ومعايشة التجربة واستبطان الشعور .

وأخيراً فإن استعمال الشعر سجلاً للوقائع ، وتأريخاً للانتصارات
يمول به إلى الخطابية والمباشرة وأسلوب السرد ، ويوحى بالاسماء
والأحداث والأيام والتواريخ والأماكن ، وكل ذلك يتأى به عن
لغة الشعر وفنيته . ثم يشير الأستاذ الدكتور عبدالقادر إلى ظاهرة
الغزبية أخرى لدى بعض الشعراء الاسلاميين ، على أن الظاهرة الغزبية
التي لاحظناها عند الشعراء السابقين ما تزال قائمة في قصيدة أبي ذؤيب
لذا ترقى الفاظه ويسلس أسلوبه وتظهر ذاتيته في المطلع النفس ،
ويعود إلى الغريب والجزالة والموضوعية في لوحاته الوصفية (١) .
ثم يرجعها الناقد الكبير إلى ضعف التأثير الاسلامي على الشاعر ، فهو
يفتخر من القديم في الموضوعات التقليدية ، ثم يرق ويمزج في
المواقف النفسية الذاتية ، وهذا طبيعي في الفترة الباكورة من العصر

(١) في الشعر الاسلامي والامري : ص ٤٥ .

الاسلامى فلم يكن الشعر الجديد قد كون تراثه بعد ، لكننا مع تقدم الزمن سوف نلاحظ التغير والتطور ، والحق أن من أهم صور (١) التطور في الشعر العربى حينذاك ، تلك اللغة الاسلامية الحضريّة بأساليبها وألفاظها ، بعد أن مرت بمراحل من التطور التدريجى بدأت في تلك المرحلة التى ندرسها ، ثم اتضحت معالمها في العصر الاموى (٢)

وهناك ظاهرة لغوية أخرى بدأت إرهاصاتها في أول العصر الاسلامى ، ثم شادت بعد ذلك وخاصة عند الشعراء الذاتيين أو العاطفيين فأصبحت ظاهرة مشتركة بين كثير منهم ، وقد أشار الدكتور القحط إلىها في قصيدة أبى ذؤيب وفي قصيدة أخرى منسوبة إلى مهزس بن قزط ، تلك هى ظاهرة تكرار كلمة معينة في نفس البيت أو في بيتين متتاليين لعدة أهداف .

١ — تحقيق المفارقة والتقابل بين أمرين أو وجهين :

يقول أبو ذؤيب :

سبعوا هواى ، وأعنفوا لهوام

فتخرموا ، ولكل جنب مصرع

(١) أضفت كلمة صور لأن الهمز بدونها لا يستقيم .

(٢) المرجع السابق ص ٢٩ .

فقد أراد بكلمتي هوى ، هوام ، إحداث مفارقة وتقابل بين
ما كان يرجوه من موته قبل أبنائه ، وبين الواقع المرحين سبقوه
بموت جماعي .

ويقول عباس بن مرداس في مدح النبي ﷺ :

ونورت بالبرهان أمرا مدمسا

وأطفأت بالبرهان نارا مضرا

فتكرار البرهان يؤدي إلى تقابل بين إنارة ظلام الجهل والضلال
بإطفاء نار الشرك والكفر . ويقول حسان بن ثابت :

إن كان في الناس سباقون قبلهم

فكل سبق لأدنى سبقهم تبع

فسبق ، سبقهم أظهرنا المارق بين زرعين من سبق أحدهما
للمسلمين الذين يفخر بهم حسان والثاني لغيرهم .

(٢) تكرار اللفظة لتحقيق إيقاع يؤكد حسنة الإحساس عند
المتلقي ، كما يشير لديه توقعا للقافية :

يقول ربيعة بن مقروم العنبي :

ودعوا نزال ، فكنت أول نازل

وعلام أركب لذا لم أنزل

فكلمة نازل في الشطر الأول هيأت الفارىء لتوقع القافية ، كما أن
البيئات الثلاث : نازل ، نوال ، أنزل أكدت إحساس الملقى بالإقدام
والشجاعة التي تملأ نفس الشاعر .

يقول حسان بن ثابت مفتخرا بقومه :

قومي الذين هم آووا نبيهم
وصدقوه وأهل الأرض كفار
إلا خمسائهن أقوام هم سلف
للمصالحين ، مع الأنصار أنصار
فأنزلوه بداد لا يخاف بها
من كان جارهم ، داراً هي الدار

ففي البيت الثاني تدفعنا كلمة الأنصار إلى توقع القافية كما تؤكد
الإحساس بمظنة المدحجين .

وكذلك دار في البيت الثالث تجعلنا نتوقع القافية وتزيد شعورنا بما
لقيه الرسول الكريم من ترحيب وحفاوة وأصر في المدينة بين الأنصار .

ويقوله أبو ذؤيب في رثائه لبيته :

أم ما لجفبك لا يلائم مدحهم
إلا أفض عليك ذاك المنهج

فهذهما الأولى جعلت الفارسي يتوقعهما روياء ، كما أحدثت إيقاعا
بين العروض والقافية يقوى حدة إحساس الشاعر بالأرق والحزن المعض
٣ - الربط بين البيتين بما يوضح ويقوى الإحساس الذي عني
الشاعر بقوله ، ويوحّد بين أجزاء الصورة :

ولقد حرصت بأن أدافع عنهم
فإذا المنية أقبلت ، لا تدفع
ولذا المنية أنشبت أظفارها
أفيمت كل تميمية لا تنفع
لقد وزع أبو ذؤيب فكرته وصورته على البيتين ، وكرر لفظ المنية
ليربط بينهما ويلم شمل أجزاء الصورة .
وحسان بن ثابت حين قال في هذلية :

أبلغ أبا سفيان أن محمدا
هو الغصن ذو الأفنان ، لا الواحد الفرد
وأبلغ أبا سفيان عني رسالة
فما لك من إصدار عزم ، ولا ورد
فكرار « أبا سفيان » ، ربطت بين البيتين ، وجمعت أجزاء
صورتي الممتزج : النبي - وإمامه أبو سفيان -
أما كعب بن زهير في « بانث معاد » فيقول :

أهست معاد بأرض لا يبلغها
إلا العناق النحيبات المراسيل
وان يبلغها إلا عذافة
فيها على الآين إرقال وتبغيل

فقد ربط بين البيتين كما أجاد التعبير عن حسه بجمد الحبيبية ، وطول
المسافة بينهما حين كرر يبلغها .

وبوسعنا الآن استخلاص ما حدث في لغز أماليب الشعر الاسلامي
من تطور خلال العهد النبوي والراشدي :

١ - التأخر بالقرآن الكريم في مجالين : اثراء المعجم العربي بمفردات
جديدة ترتبط بالإسلام في مختلف جوانبه وكذلك في تحول مقياس
البلاغة إلى السهولة والرفقة .

٢ - ميل الشعر الاسلامي إلى الرقة والبساطة يرجع إلى أن الفترة تعد
انتقالا بين عصرين ، وجود تمهات جديدة لم تتأصل طرق التعبير
الغني عنها ، ولأن الشعر وسيلة دعائية وسجلا للوقائع والتاريخ ،
والشعراء يتابعون الأحداث بإنتاج سريع فلا يجدون فرصة
للتفكير والتدبيل .

٣ - كثير من الشعراء غير محترفين ، فلا يملكون رصيدا فنيا
ولا خبرة وممارسة .

٤ - استغلال ظاهرة التكرار اللفظي لعدة أهداف .

(رابعاً) البناء الفني : يتفق المدارسون للشعر في باكورة العهد الإسلامي على أن التغيير الجذري الخطير الذي أحدثته الإسلام في شتى جوانب الحياة ، كان بحاجة إلى فترة زمنية طويلة لكي يستوعبه الشعراء ويتشملوه ويعايشوه وجدانها وذهنها ، ثم يمتدوا - بعد تجارب ومحاولات إبداعية - إلى وسائل فنية جديدة ، وألفاظ شعرية موحية معبرة ، وصور مبتكرة مناسبة ، ويترجم كل هذا في نسج شعري متمسك ، يعبر عن الحدث الكبير ويتلادم مع أهميته وقوته .

وعلى ذلك . . فهدف المستوى الفني لشعر تلك الفترة - لمسلمنا بوجوده - لا يرجع إلى التأخير السالب للإسلام على الشعر ، وإنما يعود إلى قصر الفترة - موضوع المسك - وبالتالي عدم توافر الوقت الكافي للتجويد والابداع الفني المتقدم .

وبالإضافة إلى هذا التحفظ ، يجب أيضاً قبل النظر في البناء الفني للشعر خلال العهد النبوي والراشدي ، أن نضع في الاعتبار أمرين مؤثرين :

(١) الكثرة الهائلة في نماذج الشعر ، وخاصة ما صيغ في معارك

الفتوح ، إن الإنسان ليدعش حقاً أمام هذه الكثرة من الشعراء ، حتى لينحيل إليه أن القاصدين جميعاً قد استحالوا شعراء ، (١) ويحل هؤلاء الشعراء ليسوا معروفين ولا محترفين ، وإنما هم من عامة المجاهدين ،

(١) الأدب في عصر النبوة والراشدين : ص ٣٠٥

حفظهم الموقف وهزتهم النجارب ، وأثارت مشاعرهم ظروف الجهاد والغربة والشوق، فنظموا الشعر دون أن يتجهزوا بأدواته أو يتعمرسوا بهماحه وروايته وكتابته ، وفي هذا الحظهم الهائل من النماذج البسيطة السريعة لشعراء مغمورين غير مجودين، تفرق وتضيع نماذج أخرى متميزة ورائعة للشعراء الممتازين ، ويسكون حكم الناصيين على الشعر الإسلامي عامة بالضعف الزكاذ .

(٢) حرص الشعراء على متابعة الأحداث المتلاحقة في المجتمع

الإسلامي وكانما أصبح الشعر سلاحا آخر من أسلحة القتال ، يعتمد عليه المقاتلون كما يعتمدون على سيوفهم ورمحهم وسهامهم . . . وفي أعقاب كل يوم من أيام القتال ، يقف الشعراء يرثون شهداءهم ، ويستلمونهم الحناسة والتهنئة ، كما يتحدثون عن مصارع أعدائهم ، ويفتخرون بأنهم أوردتهم موارد الموت والهلاك ، في سبيل نصرة القضية التي يقاتلون من أجلها (١) كل ذلك هذا الأغراض والقضايا الأخرى.

وبعد هذين الاعتبارين يمكننا إلقاء الضوء على جانب البناء الفني لنرى ما استبقاه المسلمون من تراث جاهلي وما أضافوه جديدا إلى نسق القصيدة العربية وتصميمها .

(١) المقدمات الخلفية والخبرية في القصيدة : توزعت مقدمات

(١) تاريخ الشعر العربي : د . يوسف خليل ص ٢٩

القصيدية الجاهلية بين الغزل، وزججا بالخربات أو متداخلا مع الاطلاع، وقد ظل هذا التقليد في سائر الشعراء الاسلامى إلى زمن متأخر، بل امتد هذ البعض إلى العصر الحديث - مثل أحمد شوقى - أحيانا .

وتقبل النقد بداية الغزل الذى يختلط بالاطلال أو يتفرد، ولكنهم وقفوا موقف الشك والتردد من المقدمات الغزلية الخيرية ويشك بعض النقاد من فى هذا الجزء الأول من القصيدة ويرون أن الشاعر لابد أن يكون قد نظم في الجاهلية، ثم عاد بأن القصيدة بعد الاسلام . ذلك لانهم ينكرون أن يتحدث شاعر إسلامى، وثيق الصلة بالدعوة والرسول، مثل هذا الحديث الصريح عن الخمر، (١) بذلك يعقب الدكتور عبد النادر على مطالع هزلية حسان بن ثابت، ثم يشير إلى مطالع أخرى لحسان وشعراء غيره، يختلط فيها الغزل بأشارات للخمر، ولا يرى في ذلك غرابة تدعو إلى الشك فيما إذا كانت تلك المقدمات نظمت أيام الجاهلية، ثم أكل الشاعر القصيدة بعد الاسلام، ويرى كذلك أن المجتمع الاسلامى لم يكن متزمتا مع الشعراء، بل كان بعد أبيات الغزل والخمر تقليدا فيما ليس لاء، ولا يعبر بالضرورة عن سلوك عملى أو تهمل أخلاقى . د ألم ترى أنهم في كل راد يهيمون، وأنهم يقولون ما لا يفعلون، (٢) .

(١) في الشعر الاسلامى والاموى ص ٤٣

(٢) سورة الشعراء: آية ٢٢٤

ويمكن أن نضيف في تعاليل تلك الظاهرة — ذكر الخمر — أن
تحرير الخمر وشربها يتم تدريجياً ، وعلى مراحل ، فالحل تلك الآيات
قد نظمت قبل أن يحدث التحريم الكامل ، كذا فإن الشاعر يتطرق إلى
الخمر فالحل العكسي يصف رضائب المحبوبة ، فهو لا يفرد للراح حديثاً ،
ولا يهينها لذاتها ولا يفاخر بشربها أو يصف بحالها ، إنما هو تشبيه
لحسب ، أو صورة فنية ورثها عن السابقين .

وبخلاصة الأمر أن مطلع القصيدة الإسلامية ظل محافظاً على النمط
الجاهلي ، فهو :

(١) غزلي خالص (٢) يتدخل فيه الغزل بالخمر

(٣) يمزج بين الغزل وبكاء الأطلال .

(٤) يدخل في العرض الأصلي للقصيدة دون مقدمات .

(٢) وحدة الدلالة ووحدة التهجئة في القصيدة : يشير الدكتور

عبد القادر ، إلى إرماسات ، تتطور هام في بناء القصيدة العربية
بدأت بواكبه في هذا العصر ، ثم توأمت حتى ميز كثير من القصائد في
العهد الأموي ، وذلك التطور يتبدى في كون القصيدة ذات دلالة
واحدة ، وتصب في بؤرة شعورية واحدة ، حتى وإن تعددت
موضوعاتها .

ويمثل الأمتاذ البائد بقصيدة أبي ذؤيب في رثاء أولاده ، حيث

صممها في بناء محكم يتكون من مقدمة تعرض ما ساء الشاعر في فقد
بذنيه ، ثم يرسم ثلاث لوحات لمقتل هاروشمي وثور وفارس شجاع ،
بإدنا كل لوحة بشطر لا يتغير :

والدهر لا يبقى على حدثاته .

فهي بط بهذا التكرار بين المقدمة واللوحات الثلاث ، كما يعطى
لقصيدته دلالة واحدة هي أن القناء نهاية كل حي .

وفي قصوري أن هذا التطور موجود في قصائد أخرى غير قصيدة أبي
ذؤيب ، فكثير من قصائد سنان قد خلصت لغرض واحد ، كالقنجر
أو المدح أو الرثاء ، وكثير من قصائد كعب بن مالك اقتصر على
وصف معركة من المعارك بين المسلمين وأهل الشرك ، وهناك شعراء
مختلفين خصصوا قصائدهم لوصف إحدى معارك الفتح ، أو التعريف
ببلد جديد وحل إليه المهاجرين ، أو رثاء الشهداء في أحد المواقع .

ومن المرجح أن وجود ذلك التقليد الشعري الذي عرف مؤخرًا
بعمود الشعر ، ويعنى البدء بالفضل أو الاطلال ، ووصف الناقة
والصحراء ، ثم الغرض الأصلي ، نخاتمة من أبيات الحكمة ، من المرجح
أن وجود ذلك التقليد في الجاهلية كان وراء توزيع القصيدة ، وعدم
انقسامها في تجربة شعرية واحدة ، وبعض القصائد الجاهلية — مثل
حاقيل في الرثاء — قد برئت من اللشنت والانقسام ، وخلصت

لفكرة واحدة ، وتمتعت بوحدة الشعور والتجربة ، لأنها لم تنحصر
لذلك التقليد .

فلما جاء الإسلام ، وقلت سيطرة التقاليد الشعرية الجاهلية وعاش .
للشعر تجارب شعورية حارة عنيفة ، تحررت بالتالي قصائدهم
الإسلامية من تعدد الأغراض ، فتوافرت لها وحدة الدلالة
ووحدة التجربة .

٣ — الافادة من قصص القرآن عن الأمم السابقة : لا ريب أن

القرآن الكريم تبع ثمر لا يفيض يستمد منه الشعر معاني وأفكارا
وأمثلة ورموزا ، بعد أن اهتدى بهديه لغة وأسلوبا ، والشئ الجديد
يبدأ دائما بمجرد لمحات وإرهاصات ، لكنه يسرى وينتشر بعد ذلك
ليكون ملامح رقصات ، ذلك ما نجده في مجال الافادة من قصص
القرآن إنما إشارات موجزة وسريعة ، بمثابة القبسات المنيرة يقول :
عبد الله بن الحارث بن عدي :

وذلك قریش تجدوا الله حقه

كما جحدت عاد ومدين والحجر

وهو يشير إلى الأمم السابقة حين كذبت رسالها وكفرت برسلها
مستفيداً من قوله تعالى ﴿ وאלئك عاد جدوا بآيات ربهم وحصوا
رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد ، واتبعوا في هذه الدنيا لغة ويوم

القيامة ، ألا إن عاداً كفروا ربهم ، ألا بعداً لعاد قوم هود (١) ،
وكذلك من قوله جل شأنه (ولما مدين أخاهم شهيداً فقال يا قوم
اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر ولا تعشوا في الأرض مفسدين ،
فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين (٢) .
وأخيراً فإن الشاعر يستوحى قول الله عز وجل (ولقد كذب
أصحاب الجحور المرسلين (٣) .

أما شداد بن عارض الجشمي في تخويفه أهل الهانف وتذكيرهم من
قتال الرسول ، إن هم تمسكوا بأصنام لا تملك أنفسهم نفعا ولا ضرا:
لا تنصروا اللات إن الله مهلكها

وكيف نصركم من ليس ينتصر
ذلك التي حرقت بالنار فاشتعلت

ولم يقاتل لدى أحجارها هدر
إن كبير الآلهة « هدر » لم يستطع الدفاع عنها حين أحرقت تماماً
كما فشل كبير الأصنام قديماً في الدفاع عنها عندما حطمها إبراهيم
(قالوا أنت فعلت هذا بالهتنا يا إبراهيم ، قل بل فعله كبيرهم هذا

(١) سورة هود : آية ٦٠/٥٩ .

(٢) سورة العنكبوت : آية ٣٦/٣٥ .

(٣) سورة الحجر : آية ٨٠ .

قالوا لهم إن كانوا ينطقون (١).

وليس من شك في أن هناك أمثلة عديدة لمن أراد استقصاء الظاهرة ،
فقول عبدالله بن رواحة :

فثبت الله ما آتاك من حسن

تثبيت موسى ، ونصر كالذي نصرنا

فيه استجاء لآيات كثيرة تحكى قصة موسى عليه السلام وتأيد الله له
ونصره إياه على فرعون وجنوده ، ومنها قوله تعالى ﴿ وفي موسى إذ
أرسلناه إلى فرعون بسلاطين مبين فتولى بركته وقال ساحر أو مجنون ،
فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو مليم ﴾ (٢)

وفي قول كعب بن مالك (٣) :

وأن تلك نمل البر بالوهم كلمت

سليمان ، ذا الملك الذي ليس بالعمى

فإننا نبى الله أحمد سبحت

صغار الحصى في كفه بالترنم

إفادة واضحة من سورة النمل وقصة النبي سليمان مثل قوله جل شأنه :

(١) سورة الأنبياء : آية ٦٢/٦٣ :

(٢) سورة الذاريات : آية ٣٨/٤٠ .

(٣) يشكده ، عبدالله القارظ في نسبة هذه الايات لكعب ص ٣٢٠ .

(حق) إذا أتوا على واد الغمل قالت نملة يا أيها الغمل ادخلوا مساكنكم
لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون (١).

وأما ذلك كثير ، وحقيقة أنها إشارات موجزة ، لم يحسن الشاعر
فيها استغلال المنهل القرآني الفياض ، ولكنها البداية التي تشوبها جدة
المحاولة ، وثقتهم منها سذاجة الريادة ، وهي على أي حال لمحات دالة
لما تركه القرآن الكريم من تأثير — لغة وأفكارا — وعلى استجابة
الشعراء الاسلاميين لما يتطلبه التغيير الجذري من تجديد في أسلوب
بقاء القعيدة العربية .

٤ — اتخذ الشاعر للحمامة أو أسد مظاهر الطليعة رمزاً: الشعر
إيجاز ولوح ، رمز إشارة ، وكلما ابتعد عن الخطابية والمباشرة ،
كلما تيمّنت التصريح والايضاح ، اقترب أكثر من الشعارية والحماس ،
واحتوى عنصر الاصل والتعريف ، والإنسان دائماً بحاجة إلى التماسي ،
ميل للبحث عن شبيه ونزد ، يفتنه شجوه ، ويفض له بهمه ويفاجيه ،
يتقارن بين حاله وحاله ، ويوازن بين آلامه وأوجاع نده ، ويستخلص
الغوا أو يشك قوة احتماله وصبره ، والشاعر أكثر الناس حاجة
إلى ذلك التماسي والسوي ، فهو الأشد إحساسا والأرفع شعورا
والأرق وجدانا والأوجع قلبا .

وقد كانت الطليعة دائماً أما حنوننا ، يحد الشاعر فيها تعاطفاً

(١) سورة النمل: آية ١٨ .

ومهادقة، ويتخذ من ظواهرها - حية وهامدة مستأنسة أو مستوحشة
يتخذ منها أشباها ونظائر وليست معالم رموزاً وموضوعات ، يخلع
عليها ما يريد قوله عن نفسه ، ويتوصل بها إلى بيان حاله والتمبير عن
شكواه، لقد هام امرؤ القيس في القفلة المفقودة بلا أنيس ولا صديق
فالتقى بالذهب الجائع ، يشبهه في الفقر والعوز (١) :

فقلت له — لما عوى — إن شأنا

قليل الغنى ، إن كنت لما تمول

كلانا — إذا ما نال شيئاً — أفاته

ومن يحترث حرثي وحرثك ، يهزل

وعترة ، حين مر على أطلال الديار بعد رحيل المحبوبة ، هيجت
دموعه عبرات الحمامة (٢) :

أفنى بسكاه حمامة في أيسكه

ذرفت دموعك فوق ظهر الحمل

كالدُر أو فمض الجمان تقطعت

منه عقائد سالكة ، لم يوصل

وفي قصيدة أخرى يحاور الطير مقارناً بين حالهما فيجد نفسه
أكبرهما وأحزن قلباً (٣) :

(١) الشعر الجاهلي بين القبلية والذاتية : د. اخلاص نخري ص ٩٧ .

(٢) موسوعة الشعر العربي : مطاع صفدي : ص ٤٥٩ .

(٣) المرجع السابق ص ٥٥٨

كيف السلو، وما سمعت مما هما
 يندبن إلا كنت أول منشد
 وسألت طير الدوح: كم مثلي شجا
 بأنيته وحزنه المتردد؟
 ناديت به ، ومدمعي منهلة
 أين الخلى من الشجى المحكمه
 لو كنت مثلي ، ما لبثت ملاوة
 وهتفت في غصن الفقا المتأرد
 ويتأسى النابغة بالحمامة أيضا (١) :
 أسألتها ، وقد سفحت دموعي
 كأن مفيض من غروب شن
 بسكاه حمامة تدعو مديلا
 مفجعة ، على فنن تغشى

لكن تلك الاشارات الموجزة العجلى في الشعر الجاهلي تنمو مع
 تطور الثقافة ، وارتفاع الفن الشعري ، فنجدها في العصر الاسلامي
 تتحول إلى صورة شعرية رائعة ، يتخذ الشاعر فيها من الحمامة رمزا

(١) في الشعر الاسلامي والاموي : د. عبد القادر القحطبي ص ٦٣ .

أو مفادلا موضوعيا وبمكف على تفصيل المقارنة بينهما من جوانب
متعددة لينخلص في النهاية إلى تماثلهما في الآلم . يقول حميد بن ثور
الهلالي ، وهو شاعر مخضرم أدرك عمر بن الخطاب (١) :

وما هاج هذا الشوق إلا حمامة
دعت ساق حر ، ترحمة وترنما
تبيكي على فرخ لها ، ثم تغنـدى
مولودة تبغى له الدهر مطعما
تقول منه مؤنسـا لانفرادها
وتبيكي عليه إن زقا أو ترنما
عجبت لها ، أنى يكون خناؤها
فصيحما ، ولم تغفر بمنطقة فدا
فلم أر عزونا له مثل صوتها
ولا عرييا شاقه صوت أعجمـا
كمثل إذا غنيت ، ولكن صوتها
له عولة ، لو يفهم العود أرزما

(١) المرجع السابق : ض ٦٣ ، ساق حر : ذكر الحمام القمري
أعجمـا : لا يفصح ، ويقصد الحمامة ، العود : الجمل المسن ، أرزما :
حن وتشوق .

ويتكرر الرمز في أبيات وقصائد أخرى ليصبح أداة فنية جديدة يستعين بها الشاعر الإسلامي على مريد من التأثير والايحاء، ويبتعد بها عن الخطابية والمباشرة، وهو ينوع في رموزه مستلهما كل مظاهر الطبيعة، يقول ابن الفريزة النهشلي أثناء معركة جوجان ببلاد فارس (١) :

وما بي أن أكون جوعت ، إلا

حنين القلب للبرق البقاني
والبرق أيضا يهيج الذكرى والحنين عند شاعر آخر أحسن غربة الروح بمد غربة البدن حين خرج غازيا بعيدا عن نجد ، ليس البرق وحده الذى شاقه من الوطن ، بل أفقار وجرة ، وريح الخزامى ، وريا حبيبة القلب ، كلها رموز للوطن تشير الشاعر وتحرك شجونه ، ويتحدث عنها فيهمود من خلال الحديث أشواقه وشجونه (٢) :

أتبكي على نجد وريا ولن ترى
بمينيك ريا ما حديث ولا نجدا
ولا مشرقا ما عشت أفقار وجرة
ولا واطنا من ترين ترى نجدا
ولا واجدا ريح الخزامى تسوقها
رياح الصبا تملو دكادك أو وهذا

(١) نظرات في الشعر الإسلامي والاموي : ص ٦٣

(٢) الأدب في عصر النبوة والراشدين : ص ٣١٢

ألا أيها البرق الذى بات يرتقى

ويجملو نجيى القلباء ذكرتنى نجدا

ويقتسح الرمز ويشمل الأرض بكل ما عليها : التراب والمطر
والزهر، بل والنخيل أيضا فهي ومن السكن والأهل والدفء والحنان ،
لأنه شاعر لم يمتن بتشبيها اسمه فى ذاكرة الرواة ، كفاه أن زفر حنينه
واستراح (١) :

حنينا إلى أرض كأن ترابها

إذا أمطرت ، هرد مسك وعنبر

بلاد كأن الأفحوان بروحه

ونور الأفاقي ، وشى برد محبر

أحنّ إلى أرض المجاز وماجتى

طرف يقصر

١٣١ بتنازل فصل رقيق فى ديوان الشعر العربى سوف ينظم عبر
العصر الإسلامى الأول ، ثلاثته فى عهد النبوة والراشدين ، ثم
يستوى دائى القطاف عبر العهد الأموى ، وتتفرع منه دوحة عظيمة
باسقة تظلل سماء الشعر الأندلسى ، فصار يجمع إلى رقة المعانى ورقة
اللغة أدوات فنية ناضجة تعتمد الرمز والإيحاء ، مستلهمة رموزها
من الطبيعة بكل عناصرها الناطقة والصامتة من طيور مختلفة ونباتات

(١) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

مقابلته وسجبال ووديان وأنهار وبحار ورياح وأمطار ، وتوزع
أغراضه بين الغزل العذرى الشفيف وبين الحنين إلى الوطن .

(٥) مقطوعات وقصائد في أوزان مختلفة : يرى الدكتور شوقي
ضيف أن أغلب شعر الفتوح مقطوعات قصيرة موجزة ، ارتجلها
المجاهدون بلا روية أو أناة ليصوروا أحداث القتال ذات الإيقاع
السريع ، فهي أشبه بتقارير وبلاغات تصدر من الميدان حاملة أخبار
المحركة ، موجزة أحوال المحاربين ، مبشرة بالنصر ، مطمئنة للأهل
والوطن . كما يرى الأستاذ الكبير أن الرجز هو الوزن الغالب على
شعر الفتوح ؛ لأنه اللحن المناسب للمواقف السريعة والأحداث
المتتابعة (١).

وفي نصوري أن هاتين الملاحظتين تصدقان على بعض شعر الفتوح
وليس كله ، لأن فيه قصائد طوال كما ضم أوزاناً متنوعة غير الرجز .

أما الشعر الإسلامي عامة ، فقد حوى كل الأنواع بين مقطوعات
قصار، وقصائد متوسطة ، وأخرى طويلة ، وكذا سبج الشعراء المسلمون
في أغلب البحور الشعرية ونظموا في جميع الأوزان حسب تنوع
الأغراض وتعدد المواقف .

(٦) الماطرة والانفعال : من المسلم به أن توهج الشعور وإثارة

(١) راجع : المصنف الإسلامي : ص ٦٦/٦٧

الماطرة وحدة الانفعال ، كل ذلك هو العامل الأول والأهم في انبثاق الشعر وتفجير ينباءه .

وإذا كانت الحمية والصراع في الحروب القبلية من أهم عوامل ازدهار الشعر الجاهلي ، حتى أن مكة لم تعرف شعراء لأنها ظلت بمنأى عن الصراع إلى بعث الرسول ﷺ ، فكيف وقد غدت المعارك القبلية الصغيرة حروبا طويلة متعددة مع أمم أخرى ، وكيف وقد صار الصراع عقائديا بين الإيمان والكفر ، بين التوحيد والشرك ؟ وكيف إذا أصبح النصر بإعلاء كلمة الحق ونشر لواء الدين أو الاستشهاد في سبيل الله هو الغاية ؟

كيف يكون الشعر إذا توافرت له كل تلك البواعث المشيرة ؟ ثم توافرت له بالاضافة لها بواعث الحنين والاضراب برحيل المجاهدين ، وبواعث الدهشة والانهار بالبلاد الجديدة المفتوحة ؟

وكيف إذا عصرت قلوب الشعراء مع كل ذلك بالدين القيم ، وسمعت نفوسهم بالقيم الأخلاقية والإنسانية الرفيعة ؟ لقد تفاعل ذلك جميعه ليولد موهبة الشعر لدى عشرات أو مئات لم يكونوا من محترفي الشعر ، بل كانوا يقولونه في لحظات من الانفعال القوي لفقد عزيز أو اغترابه في الفتوح ، أو لحنين جارف إلى موطنهم الأول ، أو للفخر بفروسياتهم وبألهم في حروب الفتح ، (١) .

(١) في الشعر الإسلامي والاموي : ص ٤٩/٥٠

ومن هنا تناثرت عشرات ، بل مئات المقطوعات في كذب السير والمغازي والتاريخ والأدب لشعراء لم يعرفوا قبلها بالشعر ، وإنما حفرهم إلى نظمه وقدة انفصال الموقف عنيف عبر معركة أو سفرة ذلك جاءت أشعار هؤلاء المقلين تلقائية في مقطوعات قصيرة أقرب مما تكون في لغتها وصورها إلى طبيعة الحياة المصرية حينذاك ، مع شيء من التوتر الذي يستدعيه الانفعال القوي .

وبخلاصة ما يقال في مجال البناء الفني للقصيدة :

(١) ظل المطلع كما كان في الجاهلية : إما غزائياً صريحاً أو يمزج الغزل بالأطال ، أو بالحمر ، لكن أكثر القصائد يدخل الشعراء الإسلامي إلى غرضه دون مقدمات .

(٢) أول ما يلاحظ من تطور في البناء الفني للقصيدة الإسلامية ظهور وحدة الدلالة ووحدة النبرة الشعرية في عدد منها .

(٣) والتطور الثاني هو الإفادة من قصص القرآن الكريم ، وإن كان ذلك في بدايته بسيطاً ومحدوداً .

(٤) اتخذ الشعراء لاحد مظاهر الطبيعة رمزاً ، وكانت له بدايات قليلة في الجاهلية ، لكن الإسلاميين توسعوا فيه وأحسنوا استغلال الرمز في رسم صور فنية .

(٥) قسم كبير من شعر الفتوح صيغ في مقطوعات قصيرة وبعضه على وزن الرجز ، لكن الشعر الإسلامي عامة ضم القصائد بأطوال مختلفة ومن أوزان متعددة .

(٦) توافرت للشعر الإسلامي بواعث جديدة من التجارب الشعرية والأحاسيس المتنوعة والانفعالات القوية .

المصادر والمراجع

- ١ - القرآن الكريم :
- ٢ - الأدب الأموي : د. محمد فتوح أحمد ، مكتبة الشباب ،
القاهرة ١٩٩٠ .
- ٣ - الأدب في عصر النبوة والراشدين ، دار الثقافة ، القاهرة ١٩٩٩ .
- ٤ - الأغاني : أبو الفرج الأصفهاني : تحقيق إبراهيم الإبياري
دار الشعب ١٩٦٩
- ٥ - البيان والتبيين : أبو عمرو عثمان بن بحر الجاحظ ، تحقيق :
فوزي عطوى ، دار صعب ، بيروت ١٩٦٨
- ٦ - تاريخ الشعر العربي في العصر الإسلامي : د. يوسف خايف ،
دار الثقافة ، القاهرة ١٩٩٠
- ٧ - تاريخ الشعر العربي ج ١ : د. محمد عبدالعزيز الكفراوي ،
مكتبة مصر ١٩٨٨
- ٨ - التطور والتجديد في الشعر الأموي : د. شوقي ضيف ، دار
المعارف ، القاهرة ١٩٧٧
- ٩ - التأثير النفسي للإسلام في الشعر : د. عبدالرحيم زلعل ،
دار الفكر العربي

- ١٠ — جبريل ونفائسه مع شعراء عصره : د. محمد عبد العزيز السكفراوي
منهضة مصر ، القاهرة ١٩٥٨
- ١١ — حديث الأربعاء ج ٢ د. طه حسين ، دار المعارف ،
القاهرة ، ١٩٥٨
- ١٢ — الخطيئة ، البدوي المخترق : د. درويش الجندى ، منهضة مصر
القاهرة ١٩٦٢
- ١٣ — الحيوان : أبو عمرو عثمان بن بحر الجاحظ ، تحقيق وشرح :
عبد السلام هارون ، دار الجيل ، بيروت ١٩٨٨
- ١٤ — دراسات في أدب ونصوص العصر الإسلامي : د. محمد عبد القادر
أحمد ، المنهضة المصرية ، القاهرة ١٩٨٦
- ١٥ — دراسات في الأدب العربي : د. عمر الطايب السامى ، دار
الشروق ، جدة ١٩٧٨
- ١٦ — ديوان حسان بن ثابت : تحقيق د: سيد حنفي حسنين ،
دار المعارف ١٩٨٧
- ١٧ — ديوان الأعشى الكبير : شرح وتعليق : د. محمد حسين ،
مكتبة الآداب ، القاهرة
- ١٨ — شرح النبرسي على «بانت سعاد» تحقيق وتعليق : د. عبد الرحيم
النجل مكتبة الآداب ، القاهرة ١٩٩٠

- ١٩ — شعر عصر صدر الاسلام : د. محمد عادل الهاشمي ، مكتبة
المنار ، الأردن ١٩٨٦
- ٢٠ — الشعر والشعراء أبو محمد عبدالله بن قتيبة ، تحقيق : د. مفيد
قيحمة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٥
- ٢١ — العصر الإسلامي : د. شوقي ضيف ، دار المعارف ، ١٩٨٩
- ٢٢ — العقيد الفريد شهاب الدين بن عبد ربه ، تقديم خايل شرف
الدين ، دار مكتبة الهلال ، بيروت
- ٢٣ — في الأدب الإسلامي والاموي : د. ابراهيم عبدالرحمن ،
مكتبة الشباب ، القاهرة ١٩٩٠
- ٢٤ — في الشعر الإسلامي والاموي : د. عبدالقادر القط ، مكتبة
الشباب ، القاهرة ١٩٩٠
- ٢٥ — فيض التقدير على شرح الجامع الصغير : العلامة المناوي ،
دار احياء السنة المحمدية ، القاهرة
- ٢٦ — قراءة في الأدب الإسلامي والاموي : د. محمد عبدالعزيز
الموافي ، مطبعة التقدم ، القاهرة ١٩٨٣
- ٢٧ — قضايا الشعر في النقد العربي : د. ابراهيم عبدالرحمن ،
مكتبة الشباب القاهرة ، ١٩٧٧
- ٢٨ — لسان العرب : ابن منظور ، دار المعارف ، القاهرة

٢٩ — المفجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : محمد فؤاد عبد الباقي
مؤسسة جمال للنشر ، بيروت

٣٠ — مقدمة ابن خلدون : عبد الرحمن بن خلدون ، دار الشعب بالقاهرة

٣١ — من قيثارة الشعر العربي : د. فتحي محمد أبو عيسى ، دار
المعارف ١٩٨٠

٣٢ — نحو أدب إسلامي معاصر : أسامة يوسف شهاب ، دار البشير
عمان ١٩٨٥

٣٣ — نظرات في الشعر الإسلامي والاموي : طاهر الفاسمي ، دار
النفائس ، بيروت ١٩٧٧

كتب أخرى للمؤلفة

- ١ — الطائر المهاجر : شعر ط ١ دار الشروق مجلة — ١٩٨٦ ، ط ٢
مكتب الآداب القاهرة ١٩٩١
- ٢ — وكذا الرجال : شعر مكتبة ذات النطاقين القاهرة ١٩٩٠
- ٣ — الشعر الجاهلي بين القبيلية والفاشية : دراسة أدبية مكتبة الآداب،
القاهرة ١٩٩١
- ٤ — قراءة نقدية في الشعر العربي المعاصر نقد أدبي : مكتبة الآداب
القاهرة ١٩٩٢
- ٥ — في القصة القصيرة والرواية : نقد أدبي : مكتبة الآداب ١٩٩٢
- ٦ — الاسلام والشعر دراسة موضوعية : مكتبة الآداب ١٩٩٢

تحت الطبع

- ١ — شاعر عبقرى « شفيق المملوف » دراسة أدبية
- ٢ — الحنين والغربة في شعر المهجر : دراسة أدبية
- ٣ — في صحبة شعراء المهجر : نقد أدبي
- ٤ — الشعر وهموم الإنسان المعاصر : نقد أدبي
- ٥ — قبل فوات الوقت : شعر

رقم الإيداع ١٩٩٢/٧١٦٥

الترقيم الدولي - I.S.B.N° 977-241-063

الإِسْلَامُ وَالشَّعْرُ

- ① ليس في القرآن الكريم تحريم لنظم الشعر ، أو تحفيره ، إلاّ حين يتعلّق طريق الهدى ، ويحيد عن الخلق والهدى .
- ② لا يمارى القرآن الشعراء ولا يذمهم ، إلا إذا انحرفوا عن الحق وأساءوا للغير .
- ③ تنفخ السنة المشرفة مع القرآن ، فترهب بالشعر منبعا من أنفس المؤمنين الحية ، وتضج مكانا للشعراء إن ابتعدوا عما يفضي الله ورسوله .
- ④ ساروا بشدون وصحابة على نزع القرآن والسنة فتزكوا الشعراء أمرا ما لم يجاروا الله ورسوله ويؤذوا المسلمين ، وأخذوهم بالسدة حماية للدين والجميع .
- ⑤ الإسلام - ممثلا في القرآن والسنة وسلك التابعين والخلفاء - رصب بالشعر فناً إنسانياً مهذباً ، يدعو للخير والحق والجمال .
- ⑥ لا يمكن لدعوة عالمية ترسم منبر حياة جديدة للإنسانية أن تسقط الشعر من حسابها وسيلة للدعوة وسلاماً للحوار ومجالاً للإبداع الفني .